
مهرجان القراءة للجميع
٢٠٠٤
مكتبة الأسرة
أدب السيرة الذاتية
نجيب محفوظ
أصداء
السيرة
الذاتية
١٠



أصداء السيرة الذاتية



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أدب السيرة الذاتية)

إشراف : طارق الجمال

أصداء السيرة الذاتية
نجيب محفوظ

الغلاف والإشراف الفنى:
للفنان: محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

أصداء السيرة الذاتية

نجيب محفوظ

السيدة التى جعلت من الكتاب وطناً !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية



والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة،

كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. **«مكتبة الأسرة»**.

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعميه**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة **«سوزان مبارك»**، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكِّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو **«المعرفة»** وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

دعـــاء

دعوت للثورة وأنا دون السابعة .

ذهبت ذات صباح إلى مدرستى الأولية محروسا بالخادمة . سرت كمن يساق إلى سجن . بيدى كراسة وفى عينى كآبة ، وفى قلبى حنين للفوضى ، والهواء البارد يلسع ساقىّ شبه العاريتين تحت بنطلونى القصير . وجدنا المدرسة مغلقة ، والفراش يقول بصوت جهير :

ـ بسبب المظاهرات لا دراسة اليوم أيضا .

غمرتنى موجة من الفرح طارت بى إلى شاطئ السعادة .

ومن صميم قلبى دعوت اللّه أن تدوم الثورة إلى الأبد !



رثـــاء

كانت أول زيارة للموت عندنا لـدى وفـاة جدتـى . كان الموت مـا زال جديـدا ، لا عهـد لى بـه عـابرا فـى الطريـق . وكنـت أعلـم بالمـأثور مـن الكـلام أنـه حتـم لا مفر منه ، أما عن شعورى الحقيقى فكان يـراه بعيـدا بعد السماء عن الأرض . هكـذا انـتزعنى النحيـب مـن طمأنينتى ، فأدركت أنه تسلل فـى غفلـة منـا إلى تلـك الحجرة التى حكت لى أجمل الحكايات .

ورأيتنى صغيرا كما رأيته عملاقا ، وتـرددت أنفاسـه فى جميع الحجرات ، فكل شخص تذكره وكل شخص تحدث عنه بما قسم .

وضقت بالمطاردة فلذت بحجرتـى لأنعـم بدقيقـة مـن الوحـدة والهـدوء . وإذا بالبـاب يفتـح وتدخـل الجميلـة ذات الضفيرة الطويلة السوداء **وهمست** بحنان :

ـ لا تبق وحدك .

واندلعـت فـى بـاطنى ثـورة مباغتـة متسـمة بـالعنف متعطشـة للجنـون . وقبضـت علـى يدهـا وجذبتهـا إلى

صدرى بكل ما يموج فيه من حزن وخوف .

دين قديم

في صباى مرضت مرضا لازمنى بضعة أشهر . تغير الجو من حولى بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة . ولت دنيا الإرهاب ، وتلقتنى أحضان الرعاية والحنان . أمى لا تفارقنى وأبى يمر على فى الذهاب والإياب ، وإخوتى يقبلون بالهدايا . لا زجر ولا تعيير بالسقوط فى الامتحانات .

ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم . عند ذاك خلق بين جوانحى شخص جديد . صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة . إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفنى ذلك من عناء . وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح ، وأصبح الجميع أصدقائى وأحبائى .

هيهات أن يفوز مرض بجميل الذكر مثل مرضى .



الحركة القادمة

قال برجاء حار :

ـ جئتك لأنك ملاذى الأول والأخير .

فقال العجوز باسما :

ـ هذا يعنى أنك تحمل رجاء جديدا .

ـ تقرر نقلى من المحافظة فى الحركة القادمة .

ـ ألم تقض مدتك القانونية بها ؟.. هذه هى تقاليد وظيفتك .

فقال بضراعة :

ـ النقل الآن ضار بى وبأسرتى .

ـ أخبرتك بطبيعة عملك منذ أول يوم .

ـ الحق أن المحافظة أصبحت وطنا لنا ولا غنى عنه .

ـ هذا قول زملائك السابقين واللاحقين ، وأنت تعلم أن ميعاد النقل لا يتقدم ولا يتأخر .

فقال بحسرة :

ـ يا لها من تجربة قاسية !

ـ لم لم تهيئ نفسك لها وأنت تعلم أنها مصير لا مفر منه؟

مفترق الطرق

عرفت فى بيتنا بأم البيه ـ حتى اليوم لم أعرف اسمها الحقيقى فهى عمتى أم البيه . تجلس فى حجرتها فوق الكنبة متحجبة مسبحة ، كلما طمعت فى مصروف إضافى تسللت إلى مجلسها . وعلى فترات متباعدة تقف سيارة أمام بيتنا الصغير فيغادرها البيه ، قصيرا وقورا مهيبا ، يلثم يد أمه ويتلقى دعاءها .

زيارته تنفخ فى البيت روحا من السرور والزهو ، وقد تحمل إلى علبة من الحلوى . رجل آخر يتردد على أم البيه كل يوم جمعة . صورة طبق الأصل من البيه غير أنه يرتدى عادة جلبابا ومركوبا وطاقية وتلوح فى وجهه أمارات المسكنة. وتستقبله عمتى بترحاب وتجلسه إلى جانبها فى أعز مكان .

حيرنى أمره .

وحذرتنى أمى من اللعب فى الحجرة فى أثناء وجوده .

ولكنها لم تجد بدا فى النهاية من أن تهمس لى :

ـ إنه ابن عمتك !

تساءلت فى ذهول : أخو البيه ؟



أجابت بوضوح :
ـ نعم .. واحترمه كما تحترم البيه نفسه !
وأصبح يثير حب استطلاعى أكثر من البيه نفسه .

الأيام الحلوة

كنا أبناء شارع واحد تتراوح أعمارنا بين الثامنة والعاشرة . وكان يتميز بقوة بدنية تفوق سنه ، ويواظب على تقوية عضلاته برفع الأثقال . وكان فظا غليظا شرسا مستعدا للعراك لأتفه الأسباب . لا يفوت يوم بسلام ودون معركة ، ولم يسلم من ضرباته أحد منا حتى بات شبح الكرب والعناء فى حياتنا . فلا تسأل عن فرحتنا الكبرى حين علمنا بأن أسرته قررت مغادرة الحى كله ، شعرنا حقيقة بأننا نبدأ حياة جديدة من المودة والصفاء والسلام . ولم تغب عنا أخباره تماما ، فقد احترف الرياضة وتفوق فيها وأحرز بطولات عديدة حتى اضطر إلى الاعتزال لمرض قلبه ، فكدنا ننساه فى غمار الشيخوخة والبعد .

وكنت جالسا بمقهى بالحسين عندما فوجئت به

مقبلا يحمل عمره الطويل وعجزه البادى .

ورآنى فعرفنى فابتسم ، وجلس دون دعوة . وبدا عليه التأثر فراح يحسب السنين العديدة التى فرقت بيننا . ومضى يسأل عمن تذكر من الأهل والأصحاب ، ثم تنهد وتساءل فى حنان :

ـ هل تذكر أيامنا الحلوة ؟!

النسيان

من هذا العجوز الذى يغادر بيته كل صباح ليمارس رياضة المشى ما استطاع إليها سبيلا ؟

إنه الشيخ مدرس اللغة العربية الذى أحيل على المعاش منذ أكثر من عشرين عاما .

كلما أدركه التعب جلس على الطوار أو السور الحجرى لحديقة أى بيت ، مرتكزا على عصاه مجففا عرقه بطرف جلبابه الفضفاض .

الحى يعرفه والناس يحبونه ، ولكن نادرا ما يحييه أحد لضعف ذاكرته وحواسه . أما هو فقد نسى الأهل والجيران والتلاميذ وقواعد النحو .



المطـرب

قلبى مع الشاب الجميل . وقف وسـط الحـارة وراح يغنى بصوت عذب :

الحلـــوة جايـــة .

وسـرعان مـا لاحـت أشباح النسـاء وراء خصـــاص النوافذ .

وقدحت أعين الرجال شررا .

ومضى الشاب هائما تتبعه نداءات الحب والموت .

قبيل الفجر

تتربعـان فـوق كنبـة واحـدة . تسـمران فـى مـودة وصفـاء . الأرملـة فـى السبعين وحماتهـا فـى الخامسـة والثمانين . نسـيتا عهـدا طويـلا شحن بالغيرة والحقـد والكراهيـة . والراحـل استطاع أن يحكـم بـين النـاس بالعدل ، ولكنه عجز عن إقامة العدل بين أمـه وزوجـه ولا استطاع أن يتنحـى . وذهـب الرجــل فاشـتركت المرأتان لأول مرة فى شـىء واحـد وهـو الحـزن العميـق عليه .

وهدهدت الشيخوخة من الجموح ، وفتحت النوافـذ لنسمات الحكمة .

الحماة الآن تدعو للأرملة وذريتها مـن أعمـاق قلبهـا بالصحة وطول العمر .

والأرملـة تسـأل الله أن يطيـل عمـر الأخـرى حتـى لا تتركها للوحدة والوحشة .

السعادة

رجعت إلى الشارع القديم بعد انقطاع طويل لتشييع جنازة .

لم يبن من صورته الذهبية أىّ أثر يذكر .

علـى جانبيـه قـامت عمـارات شـاهقة فـى موضـع الفيـلات ، واكتـظ بالسـيارات والغبـار وأمـواج البشـر المتلاطمة .

تذكرت بكل إكبار طلعته البهية وروائح الياسمين .

وتذكرت الجميلة تلـوح فـى النـافذة باعثـة بشـعاعها على السائرين .

ترى أين يقع قبرها السعيد فى مدينة الراحلين ؟



ويوافينى الآن قول الصديق الحكيم : « ما الحب الأول إلا تدريب ينتفع به ذوو الحظ من الواصلين » .

الطـرب

اعترض طريقى باسما وهو يمد يده . تصافحنا وأنا أسأل نفسى عمن يكون ذلك العجوز . وانتحى بى جانبا فوق طوار الطريق وقال :

ـ نسيتنى ؟!

فقلت فى استحياء :

ـ معذرة ، إنها ذاكرة عجوز !

ـ كنا جيرانا على عهد الدراسة الابتدائية ، وكنت فى أوقات الفراغ أغنى لكم بصوت جميل ، وكنت أنت تحب التواشيح ..

ولما يئس منى تماما مد يده مرة أخرى قائلا :

ـ لا يصح أن أعطلك أكثر من ذلك ..

قلت لنفسى : يا له من نسيان كالعدم . بل هو العدم نفسه . ولكننى كنت ومازلت أحب سماع التواشيح .

رسالة

وردة جافة مبعثرة الأوراق عثرت عليها وراء صف من الكتب وأنا أعيد ترتيب مكتبتى .

ابتسمت . انحسرت غيابات الماضى السحيق عن نور عابر .

وأفلت من قبضة الزمن حنين عاش دقائق خمس .

وند عن الأوراق الجافة عبير كالهمس .

وتذكرت قول الصديق الحكيم : « قوة الذاكرة تنجلى فى التذكر كما تنجلى فى النسيان » .

عتاب

همت على وجهى حاملا طعنة الغدر بين أضلعى .

وقال الصديق الحكيم : لست أول من كابد الهجران .

فسألته : أليس للشيخوخة مقام ؟

فقال : غر من يعشق قصة معادة قديمة .



ووقفت تحت شجرة الكافور أرنو من بعيد إلى الملهى .

وهى تجلس وسط الشرفة يشع منها نور الإغراء المبين .

لا يدركها كبر ولا يمسها انحلال .

وتخطانى بنظرة لا مبالية فليس لقرارها تبديل ، بل وسوف أرجع وحيدا كما بدأت .

التلقين

جلست فى السرادق أنتظر تشييع الجنازة .
خيمت فوقنا ذكريات ذلك العهد القديم
وجاء رجال ذلك العهد يسيرون رجلا وراء رجل
كانت الأرض تزلزل لأى منهم إذا خطا .
اليوم هم شيوخ ضائعون لا يذكرهم أحد .
وجاء خلفاؤهم تنحنى الأرض تحت وطأة أقدامهم
تقول نظراتهم الثابتة إنهم ملكوا الأرض والزمن
أخيرا ، هلّ النعش فوق الأعناق فتخطى الجميع وذهب .

الوظيفة المرموقة

أخيرا مثلت بين يدى مدير مكتبه . وصلت بفضل اجتهاد مضن وشفاعة الوجهاء المكرمين .

ألقى نظرة أخيرة على التوصيات التى قدمتها ، ثم قال :

ـ لشفعائك تقدير وأى تقدير ، ولكن الاختبار هنا يتم بناء على الحق وحده .

فقلت برجاء :

ـ إنى على أتم استعداد للاختبار .

ـ أرجو لك التوفيق .

فسألته بلهفة :

ـ متى ندعى للامتحان ؟

فتجاهل سؤالى وسألنى :

ـ ولماذا هذه الوظيفة بالذات على ما تتطلبه من جهد خارق ؟

فقلت بإخلاص :

ـ إنه الحب ، ولا شىء سواه .

فابتسم ولم يعلق .



ورجعت وأنا أتذكر قول صديقى الحكيم : « من ملك الحياة والإرادة فقد ملك كل شىء ، وأفقر حى يملك الحياة والإرادة .

الصور المتحركة

هذه الصورة القديمة جامعة لأفراد أسرتى ..
وهذه جامعة لأصدقاء العهد القديم .
نظرت إليهما طويلا حتى غرقت فى الذكريات ..
جميع الوجوه مشرقة ومطمئنة وتنطق بالحياة .
ولا إشارة ولو خفيفة إلى ما يخبئه الغيب ،
وها هم قد رحلوا جميعا فلم يبق منهم أحد .
فمن يستطيع أن يثبت أن السعادة كانت واقعا حيا ، لا حلما ولا وهما .

العدل

ذهبت إلى محام معروف بلا تردد . ما أجمل صراحته حين قال لى :
ــ أنت صاحب حق ، ولكن خصمك أيضا صاحب حق .

فقلت له :

ـ عرضت عليه أن نحتكم إلى شخص يكون موضع ثقتنا معا .

ـ هيهات أن يوجد هذا الشخص فى زماننا .

ـ لدى خطابات مسجلة ستعرف منها المحكمة حسن نيتى .

ـ قد يطعن فيها بالتزوير .

ـ الحق أنى برىء مائة فى المائة .

ـ لا يوجد إنسان برىء مائة فى المائة .

ـ ليس الأمر بالمستحيل .

ـ ألم تهدده فى لحظة غضب بالقتل ؟

ـ هو نفسه لم يأخذ كلامى مأخذ الجد .

ـ بل قام باحتياطات كثيرة ، وزار الأضرحة ونذر النذور .

فهتفت ضاحكا :

ـ هذا هو الجنون .

ـ عليك أن تثبت أنه مجنون خاصة ، وأن محاميه سيحاول من ناحيته أن يثبت جنونك .

فأغرقت فى الضحك حتى قال المحامى :



ـ لا يوجد ما يدعو إلى الضحك

ـ اتهامى بالجنون مثير للضحك

ـ بل إنه يدعو للأسى .

ـ لماذا يا سيدى ؟

ـ الجنون يدعو للأسى .

ـ طالما أنى عاقل فلا أهمية للاتهام .

ـ ولكن عدم الاهتمام قد يعنى الجنون نفسه .

فسألته بذهول :

ـ هل يداخلك شك فى عقلى ؟

ـ بل إنى على يقين ، اختلافكما المزمن يدل على جنونكما معا .

ـ لكنك أبديت استعدادا طيبا للدفاع عنى ؟

ـ إنه واجبى !

وتنهد المحامى من أعماقه وواصل :

ـ ولا تنس أننى مجنون مثلكما ..

من التاريخ

فى ذلك الوقت البعيد قيل إنه هاجر أو هرب . والحقيقة أنه كان يجلس على العشب على شاطئ النيل مشتملا بأشعة القمر . يناجى أحلامه فى حضرة الجمال الجليل .

عند منتصف الليل سمع حركة خفيفة فى الصمت المحيط . ورأى رأس امرأة ينبثق من الماء أمام الموضع الذى يفترشه . وجد نفسه أمام جمال لم يشهد له مثيلا من قبل . ترى أتكون ناجية من سفينة غارقة ؟. لكنها كانت غاية فى العذوبة والوقار فداخله الخوف ــ وهمّ بالوقوف تأهبا للتراجع ، ولكنها قالت له بصوت ناعم :

ــ اتبعنى .

فسألها وهو يزداد خوفا .

ــ إلى أين ؟

ــ إلى الماء لترى أحلامك بعينيك .

وبقوة سحرية زحف نحو الماء وعيناه لا تتحولان عن وجهها .



الأشباح

عقب الفراغ من صلاة الفجر ، رحت أتجول فى الشوارع الخالية ، جميل المشى فى الهدوء والنقاء بصحبة نسائم الخريف . ولما بلغت مشارف الصحراء جلست فوق الصخرة المعروفة بأم الغلام .

وسرح بصرى فى متاهة الصحراء المسربلة بالظلمة الرقيقة . وسرعان ما خيل إلى أن أشباحا تتحرك نحو المدينة . قلت : لعلهم من رجال الأمن . ولكن مر أمامى أولهم فتبينت فيه هيكلا عظميا يتطاير شرر من محجريه .

واجتاحنى الرعب فوق الصخرة . وتسلسلت الأشباح واحدا فى إثر آخر .

تساءلت وأنا أرتجف عما يخبئه النهار لمدينتى النائمة ..

قطار المفاجآت

فى عيد الربيع يحلو اللهو ويطيب . وقفنا جماعة من التلاميذ فى بهو المحطة بالبنطلونات القصيرة . وبيد كل

سلة من القش الملون مملوءة بما قسم من طعام . وكان علينا أن نختار بين رحلتين وقطارين . قطار يذهب إلى القناطر الخيرية ، وآخر يمضى إلى جهة مجهولة يسمى بقطار المفاجآت .

قال أحدنا :

ـ القناطر جميلة ومضمونة .

فقال آخر :

ـ المغامرة مع المجهول أمتع .

ولم نتفق على رأى واحد .

ذهبت كثرة إلى قطار القناطر ،

وقلة جرت وراء المجهول .

حمام السلطان

حلمت مرة أننى خارج من حمام السلطان . تعرضت لى جارية ودعتنى إلى لقاء سيدتها . ومالت بى فى الطريق إلى حجرتها لتهيئنى للقاء كما يملى عليها واجبها . وألهانى التدريب عن غايتى حتى كدت أنساها . ولما وجب الذهاب ، ذهبت إلى السيدة

الجميلة وأنا من الخجل فى نهاية . ووقفت بين يديها منهزما وقد علانى الصدأ .

هكذا تحول الحلم إلى كابوس .

وكان لا بد من معجزة لتشرق الشمس من جديد .

العقاب

رآه ماثلا أمامه كالقدر . غاب طويلا ولكن لم ينحن له ظهر أو يرق بصر . بسرعة انقضاض الزلزال جرى شريط الذكريات الدامية . وسحب وراءه صورة أسرته البريئة التى عرفته مثالا للاجتهاد والرزق الحلال جاهلة ما وراء ذلك .

ـ اتفقنا على أن نفترق إلى الأبد .

فقال له الزائر بهدوء :

ـ للضرورة أحكام وإنى مهدد بالإفلاس .

وقال لذاته : إن طوفان الابتزاز يبدأ بقطرة ،

ـ كنا شريكين فما يصيبنى يصيبك .

فقال الزائر :

ـ عند اليأس أقول : علىّ وعلى أعدائى يا رب !

أسرته هى ما يهمه ، حتى إذا كان الانتحار هو الحل .

المــرح

نظرت إلى بعينين باهتتين ذابلتين . النظرة تشكو مر الشكوى وتريد أن تبوح ولكن اللسان عاجز .

كنت أعودها والحجرة خالية .

الجلد متهرئ والعظام بارزة والأركان تفوح منها رائحة الموت .

يا صاحبة المداعبات التى لا تنسى .

طفولتى عامرة بمداعباتك اللطيفة .

لم يكن يعيبك إلا الإغراق فى المرح .

أى نعم .. الإغراق فى المرح .





فرصة العمر

صادفتها تجلس تحت الشمسية ، وتراقب حفيدها وهو يبنى من الرمال قصورا على شاطئ البحر الأبيض .

سلمنا بحرارة ، جلست إلى جانبها ، عجوزين هادئين تحت مظلة الشيب .

وضحكت فجأة وقالت :

ـ لا معنى للحياء فى مثل عمرنا ، فدعنى أقص عليك قصة قديمة .

وقصت قصتها وأنا أتابعها بذهول حتى انتهت .

وعند ذاك قلت :

ـ فرصة العمر أفلتت ، يا للخسارة !

رسالة لم تكتب

فى عام واحد علمت بتعيين همام رئيسا لمحكمة استئناف الإسكندرية ، كما قرأت خبر تنفيذ حكم الإعدام فى سيد الغضبان لقتله راقصة . كنا ـــ أنا وهمام والغضبان ـــ أصدقاء طفولة ، وكان الغضبان



بؤرة الإثارة لجمال صوته ونوادره البذيئة . وافترقنا قبل أن نبلغ التاسعة فمضى كل إلى سبيله . عرفت من بعض الأقارب بانخراط همام فى سلك الهيئة القضائية ، وتابعت أنباء الغضبان فى الصحف الفنية كبلطجى من بلطجية الملاهى الليلية .

والحق أن خبر الإعدام هزنى ، وطار بى على جناح التأمل إلى العهد القديم . وفكرت أن أكتب رسالة إلى همام أضمنها تأثرى وتأملاتى . وشرعت فى الكتابة ، ولكننى توقفت وفتر حماسى أن يكون قد نسى ذلك العهد وأهله أو أنه لم يعد يبالى بهذه العواطف .

الزيارة الأخيرة

لولا المعلم عبد الدائم لضاع كل وافد على المدينة القديمة . يستقبل الوافدين فى مقهى المعز ثم يفتح لكل مغلق الأبواب . وكان عبد الله أحد أولئك الوافدين . ما لبث أن ألحقه بوظيفة مساعد بواب فحمد الرجل ربه على الرزق والمأوى . وحثه على الرشد والتدبير حتى زوجه من بنت الحلال . وجعل عبد الله يزوره فى المقهى من حين لآخر اعترافا بفضله وإحسانه ، غير

أنه لما استغرقه العمل وتربية الأولاد ندرت زياراته حتى انقطعت . وبلا الرجل الحياة بحلوها ومرها ، وتصبر حتى وقف الأولاد على أقدامهم وانطلق كل فى سبيل . ومع تقدم السن شعر عبد الله بأنه آن له أن يستريح وينفض عن رأسه الهموم . وفى فراغه تذكر المعنم عبد الدائم فشعر بالخجل والندم ، وصمم على زيارته داعيا الله أن يجده متمتعا بالصحة والعافية . وقصد مقهى المعز وهو يعد نفسه للاعتذار وطلب العفو . لاحظ من أول نظرة ما حل بالمقهى من تجديد وفرنجة فى الأثاث والخدمة والزبائن ولم يعثر لصاحبه على أثر . ووضح له أن أحدا لم يسمع به . وظهر عجوز يسرح بالمسابح والبخور ، وكان الوحيد الذى تذكره ، والوحيد الذى يعرف منزله بالإمام ، ولا يعرف عنه أكثر من ذلك . ولم تحل تلك الصعوبات بين الرجل ورغبته فمضى من فوره إلى الإمام ، كان يقوده شعور قوى بالوفاء ، وبأنه ذاهب إلى غير رجعة ..



الرحمة

البيت قديم وكذلك الزوجان ..

هو فى الستين وهى فى السبعين

جمعها الحب منذ ثلاثين عاما خلت ، ثم هجرهما مع بقية الآمال .

لولا ضيق ذات اليد لفر العصفور من القفص .

يعاني دائما من شدة نهمه للحياة ، وتعانى هى من شدة الخوف ،

ويسلى أحلام يقظته بشراء أوراق اليانصيب لعل وعسى .

كلما اشترى ورقه غمغم : « رحمتك يا رب » .

فيخفق قلب المرأة رعبا وتغمغم « رحمتك يا رب » .

البحث

لدى المساء قصد المدفن الذى يجتمع فيه مع بعض الأقران للسمر والمرح وتبادل أنات الشكوى . وسأله أحدهم :

ـ كيف انتهى سعيك هذا اليوم ؟

فأجاب بفتور :

ـ كالأيام السابقة .

فقال آخر :

ـ إنك تضيع وقتك بين أوغاد ، وعندنا أقصر طريق للرخاء .

فقال بامتعاض :

ـ وهو أقصر طريق إلى السجن أيضا !

فقال الآخر ساخرا :

ـ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

سؤال وجواب

سأل العجوز السيدة :

ـ معذرة يا صديقة العمر ، لماذا تبذلين نفسك للهوان ؟

فأجابت بوجوم :

ـ من حقك عليّ أن أصارحك بالحقيقة ، كنت أبيع الحب بأرباح وفيرة ، فأمسيت أشتريه بخسائر فادحة ، ولا حيلة لى مع هذه الدنيا الشريرة الفاتنة .



التحدى

فى غمار جدل سياسى سأل أحد النواب وزيرا :

ــ هـل تستطيع أن تدلنـى علـى شـخص طـاهر لم يلوث ؟

فأجاب الوزير متحديا :

ــ إليك ــ علـى سـبيل المثـال لا الحصـر ــ الأطفـال والمعتوهين والمجانين ،

فالدنيا ما زالت بخير ..

المليم

وجدت نفسى طفلا حـائرا فـى الطريـق . فـى يـدى مليم ، ولكنى نسيت تماما مـا كلفتنـى أمـى بشـرائه . حاولت أن أتذكر ففشلت ، ولكن كان من المؤكـد أن ما خرجت لشرائه لا يساوى أكثر من مليم ..

دموع الضحك

قلت له :

ـ الحمد لله ، لقد أديت رسالتك كاملة ، وبلغت بأسرتك بر الأمان . وانتزعت من وحش الأيام أنيابه الضارية ، فآن لك أن تخلد إلى الراحة والسكينة فى الأيام القليلة الباقية .

حدجنى بارتياب وسألنى :

ـ هل تذكر أيامنا الطاهرة فى الزمان الأول ؟

قرأت هواجسه فقلت :

ـ ذاك زمان قد مضى وانقضى .

فقال بنبرة اعتراف :

ـ يا صديقى الوحيد ، فى عز النصر والرخاء ، كثيرا ما بكيت الكرامة الضائعة .

الحوار

رجع الأب إلى البيت فوجد الأبناء فى انتظاره ، أخرج حافظة نقوده متجهما وغمغم :

ـ الأب فى زماننا شهيد .



فالتزموا الصمت
ثم تفرقوا تفرق الشهداء .

المتسول

إنه يسبح فى بحر الماضى فتغمره موجة مخضبة بلون قاتم
وصداها ينداح فى نغمة حزينة لا تتلاشى
عندما يكون المرء فى العشرين وجارته فوق الخمسين
وقد وهبته من الذكريات الحنان والأمومة .
وفى خلوة بريئة تهل خواطر من عالم الرغبات المتوهجة
وتند عن لمعة العين حرارة النداء ،
يشكمه الحياء قليلا وشىء كالخوف .
يرافقه بعد ذلك الندم
ويتسول النسيان .

الوحدة

لزق المنظر البشع بذاكرتها يتزحزح . منظر كف الضابط العمياء وهى تهوى على خد أبيها العليل .
وبقدر ما كانت تحب أباها وتقدسه بقدر ما خاصمت

كل شىء ، نفسها والعالم من حولها . وتتقدم بها السن وهى وحيدة ترمقها ثقوب الكون برثاء .

عيد الميلاد

ما أكثر ما يسير بلا هدف . وإذا التعب نال منه توقف ، لكنه لا يكف عن مناجاة الأشياء الثابتة والمتحركة .

فى نهاية هذا العام يبلغ الثلاثين من عمره ..

سؤال بعد ثلاثين عاما

بعد انقطاع عشرين عاما عن حى الشباب دعتنى مناسبة إلى عبوره . لولا ما جاش فى صدرى من عواطف نائمة ما عرفته فى عمائره الجديدة وزحامه الصاخب . وثبتت عيناى على بيت قديم بقى على حاله فشعرت بابتسامة ترف على الروح والجسد . إنها اليوم وحيدة فى الثمانين . وآخر لقاء جمع بيننا بالمصادفة منذ ثلاثين عاما حين أخبرتنى بهجرة وحيدها إلى الخارج بصفة نهائية . ومضيت ومظلتى وقصدت

الباب بعد تردد وضغطت على الجرس . فتحت شـراعة الباب عن وجه امرأة غريبة فداريت ارتباكى بسؤال :

ـ ألا تقيم ست سامية هنا ؟

فأجابت بسرعة :

ـ نحن نقيم هنا منذ ثلاث سنوات !

تحولت عن موقفى فى حيرة . وذهبت إلى مشـوارى وأنـا أتسـاءل : تـرى أيـن هـى ؟ هـل تقيـم فـى حـى آخر ؟ ، هل لحقت بابنها فى الخارج ، هل رحلت عـن دنيانا دون أن نعلم رغم القربـى ؟. وهـل يصلـح ذلـك نهاية لذلك التاريخ المؤجج بالعواطف والأحلام !.

وجمعنى فى نفس العام مـأتم مـع البـاقين مـن الأسـرة فسألت أحدهم :

ـ ماذا تعرف عن ست سامية ؟

فرفع حاجبيه بدهشة وقال :

ـ أعتقد أنها ما زالت تقيم فى البيت القديم !

وجه من الماضي

رأيت ست نفوسة في المنام . ماذا جاء بك بعد غياب سبعين عاما بل يزيد . كانت طلعتك بهية وبشرتك صافية وشعرك غزيرا . وكان بيتك يطل على النيل ، وكنا نزورك كثيرا وكنت أعتبر أوقات زيارتك من أسعد الأوقات ، ومن نافذة الحجرة كنت أغوص ببصرى فى الأمواج الهادئة فيسبح حتى الشاطئ البعيد .

لم يبق من الحلم إلا وجهك ، وتساؤلى : ترى أما زالت على قيد الحياة !

أما وقائع الحلم فقد تلاشت بعد استيقاظى مباشرة .

المطر

دفعنا المطر إلى مدخل بيت قديم . فى الخارج صوت انهلال المطر وهزيم الرعد ، وفى الداخل لون المغيب . وقفنا متقابلين فى المدخل الضيق ، وليس معنا إلا بئر السلم وأفكارنا الخفية . قلت لنفسى : يا لها من امرأة ! وسرحت هى فى الجو البارد معتزة محتشمة .

قالت وكأنما تحدث نفسها :



ـ هذا المطر مقلب ما بعده مقلب .
فقلت وأنا حائر بخواطرى :
ـ إنه رحمة للعالمين .

رجـل الساعة

دائما هو قريب منـى . لا يـبرح بصـرى أو خيـالى ، يريق علىّ نظراته الهادئـة القويـة . مـن وجـه محـايد فـلا يشاركنى حزنا أو فرحا . ومــن حـين لآخـر ينظـر فـى ساعته موحيا إلىّ بأن أفعل مثله ، أضيق به أحيانا ولكن إن غاب ساعة ابتلانى الضياع ، جميـع مـا لا قيـت فـى حياتى من تعب أو راحة من صنعه . وهو الذى جعلنـى أتوق إلى حياة لا يوجد بها ساعة تدق .

الساحـرة

مرت بى فى خلوتــى كـالوردة اليانعـة فـوق الغصـن النضير . وانهمرت ذكريات تلك الأيام الباهرة وذهلـت لسرعة الزمــن . وكنـت شـكوت إلى صديقـى الحكيـم بعض ما لقيت ، فعقب على شكواى قائلا :
ـ هل تنكر حظك من دفـء الدنيا ونشوتها ؟

فعددت الحسنات إقرارًا منى بفضل الوهاب فقال :

ـ جميع تلك الحظوظ ثمرة لإعراضها .

وبعد صمت قصير سألنى :

ـ ألا تذكر إثارة من إقبالها ؟

فقلت :

ـ نظرة رضا عابرة تحت النخلة !

ـ هل تذكر مذاقها ؟

ـ أطيب من جميع الحظوظ مجتمعة .

فقال بهدوء :

ـ لذلك أقول لك إنها سر الحياة ونورها .

شق الطريق

كنت أنتظر لصق جدار بالطريق الضيق المكتظ بالناس والدكاكين . فى ذلك التاريخ كنت معذبا فى مقام الحيرة تتجاذبنى رياح متضاربة . وجذبتنى قوة خفية إلى ناحية ما فرأيت عجوزا وقورا يشع طيبة وصفاء .

أقبل نحوى حتى صار على بعد شبر منى ، وهمس :

ـ إنها لا تساوى شيئا ..



أيقنت أنه قرأ هواجسي وأنه يدعوني إلى قطع الروابط .

ارتجفت جوارحي وخفق قلبي بشدة .

وتبدى لى الإغراء فى صورة حسناء لم أشهد لجمالها مثيلا من قبل .

لكنى ترددت .

وفى تلك الآونة رجعت زوجتى حاملة قراطيس العطارة جارة أبنائى الثلاثة .

وأفقت من غشيتى ، وحملت الأصغر بين يدى ، وتقدمت أسرتى أشق لها طريقا وسط الزحام .

رجل يحجز مقعدا

بدأ الأوتوبيس مسيرته من الزيتون فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها سيارة رجل من مسكنه فى حلوان .

غيرت كل منهما سرعتها ، أسرعت وأبطأت ، وربما توقفت دقيقة أو أكثر تبعا لما لاقته فى سيرها من ظروف الطريق .

ولكنهما بلغا ميدان المحطة فى وقت واحد ، بل ووقع

بينهما صدام خفيف ، أتلف مصباح الأوتوبيس وكشط مقدم السيارة .

وكان رجل يمر فانحصر بين السيارتين ، وسقط فاقد الحياة .

كان يعبر الميدان ليحجز مقعدا فى قطار الصعيد .

سر الرجل

كان يمر بمجالسنا وهو يصيح :

ـ إنها آتية لا ريب فيها .

ثم يمضى مهرولا فلا يبقى منه إلا منظر ثيابه المهلهلة ونظرته الشاردة .

ووقعت الكارثة ..

قوم قالوا : إنه ولى من الأولياء .

وقوم قالوا : ما هو إلا عميل من العملاء .

هدية

فى عزلة الشيخوخة وعجزها ينتشر التأمل مثل عبير البخور .

وقال لصاحبه العاكف على العبادة وكأنه يعتذر :



ـ فى زحمة هموم أسرتى ومطالب الشئون العامة ضاع عمرى ، فلم أجد وقتا للعبادة .

فى تلك الليلة زاره فى المنام من أهدى إنيه وردة بيضاء وهمس فى أذنه :

ـ هدية لا يستحقها إلا العابدون الصادقون !

القبر الذهبى

رأيت فى المنام قبرا ذهبيا قائما تحت أغصان شجرة سامقة مغطاة بالبلابل الشادية .

وعلى صدره نقشت بأحرف جميلة واضحة كلمات تقول :

هنيئا لمن كانت نشأته فى بوتقة الهجران .

الرسالة

عثرت يوما على وردة مطروحة تحت قدمى . لم تخل من إثارة رونق فالتقطتها .

وإذا بورقة مطوية مربوطة بخيط أبيض حول عودها الأخضر . بسطتها بفضول فقرأت « تعال ، ستجدنى كما تحب » .

سرحت فى ابتسامة وتساءلت : كيف أخطأت الرسالة هدفها . لماذا ألقى بها فى التراب ؟

وهمت حينا فى وادى الفروض والاحتمالات ، ولكنى أثنيت على الدنيا التى لا ينضب فيها معين الحب .

ونسمت على نسائم من الماضى البعيد فخفق القلب بقدر ما أتيح له .

وفجأة تجاوزت ترددى القديم .

وعزمت على أن أبدأ الإجراءات ليكون لى مدفن فى هذه المدينة المترامية .

النـداء

أحيانا يظهر لى بوجهه الجميل فيلقى إلىّ نظرة رقيقة ويهمس :

« اترك كل شىء واتبعنى » .

قد يلقانى وأنا فى غاية الإحباط ، وقد يلقانى وأنا فى نهاية السرور ، ودائما ينتزع من صدرى الطرب والعصيان .

وكلانا لم يعرف اليأس بعد .



المنشــود

فى غمار شيخوخة وعزلــة وأفكـار يقطـر منهـا مـاء الورد .

ترددت أنفاس الوعد المنشود .

ودق الجرس على غير توقع وجاءت الجارة مستأذنة ، واندمجت فيما أنا مندمج فيه حتى آمنت بأنها الوعــد المنشود .

الغوص فى الماء

شهد ذات ليلة خسوف القمر . وتلقـى مـن تعاسـته المتوارية خلف الغلالة المظلمة كآبة قطعت ما بينه وبــين الأشـياء . لم يعـد يـأنس لشـىء واحتـار الأطبـاء فيــه . ونصـح بـالهجرة إلى مكـان نـاء لتغيير المنظر والمخبر . ذهب يائسا يتجول على شاطئ البحر . وعلى بعد رأى شمسية تستكين فيها امرأة شبه عاريــة غايـة فـى الجمـال والسكينة . انجذب نحوها كأول شىء يلقـاه فـلا يبعـث فى نفسه الكآبة والوحشة ، وشعر بأنها ترحب به دون كلمة أو حركة فاستخفه الطرب . وقامت متوجهة نحو

الماء فتجرد من ثيابه وتبعها . وخاضا فى الماء معا دون أن يلقيا على ما وراءهما نظرة واحدة .

التوبة

مرت أمامى الجميلة الفاتنة وهى تتأود وتتنهد ، فلم ألتفت إليها .

نعمت فى ذلك الوقت الجاف بإرضاء كبرياء الزهد والإعراض عن مغريات الدنيا .

وثبت إلى طبيعتى فى ليلة قمرية ذات بهاء ،

وسعيت وراء الجميلة الفاتنة وأنا مشفق من العقاب ، ولكنها تلقتنى بابتسامة وقالت :

ـ لتهنأ بمصيرك فإننى أقبل التوبة .

التسبيح

فى وضح النهار والحارة تموج بأهلها من النساء والرجال والأطفال ، والدكاكين على الصفين تستعد لاستقبال الزبائن .

فى وضح النهار سقط رجل ضعيف ضحية لعملاق جبار .

وشاهد الناس الجريمة . وتواروا فى برج الخوف .

لم يشهد منهم أحد ومضى القاتل آمنا .

وشهد الدرويش الحادث ولكنه لم يُسأل للاعتقاد الراسخ فى بلاهته .

وغضب الأبله غضبا كدما (عضوضا) فعزم على الانتقام من الجميع ،

كلما واتته فرصة قضى على رجل أو امرأة وهو يسبح لله .

النصيحة

كان لنا جار من المريدين . وكان يدعو شيخه كل ليلة خميس لإقامة الذكر والإنشاد .

وكنت أقف مع الصبية المتجمعين وراء المدعوين المتربعين على الأبسطة .

وكان الذكر يمتعنا والإنشاد يطربنا .

ومرة سأل الشيخ سائل من المريدين :

« نراك وجيها فى منظرك ، بادى الصحة والعافية ، تحب الأكل والشرب ، ولست كالشيوخ الزاهدين ؟

فقال الشيخ بصوت سمعه الجميع :

ـ نحن قوم نعمل لنرتزق ولا نتسول ، نقبل على دنيا الله ولا نعرض عنها ، قرة أعيننا فى العشق والسكر ، وسياحتنا الليلية فى التأمل والذكر .

ليلة القدر

زينا حجرة الاستقبال بالورود . وتسلّل البخور من نوافذ بيتنا إلى عرض الطريق . وأعددنا من أسباب السرور ما يلذ السمع والبصر والذوق .

وأملنا كالآخرين أن ينزل الشيخ فى ضيافتنا ويسهر عندنا ليلة القدر . واستغرق والداى فى التلاوة وجعلت أذهب وأجىء بين النافذة والباب المفتوح .

وفجأة تعالت فى جلال الليل زغرودة من بيت أحد الجيران .

وتبادلنا نظرات الأسى فى صمت .

وقال أبى متنهدا :

ـ لا يريد الحظ أن يبتسم بعد .



همسة عند الفجر

فى مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق همس فى أذنى صوت عند الفجر:

ـ هنيئا لك فقد حم الوداع

وأغمضت عينى من التأثر ، فرأيت جنازتى تسير وأنا فى مقدمها أسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة .

الهجر

لم أشعر بأنه مات حقا إلا فى مأتمه .

شغلت المقاعد بالمعزين وتتابعت تلاوة القرآن الكريم . وانهمك كل متجاورين فى حديث ، فذكرت حوادث لا حصر لها . إلا الراحل فلم يذكره أحد .

حقا لقد غادرت الدنيا أيها العزيز ، كما أنها قد غادرتك .

هيهات

ما ضننت على بشىء جميل مما تملك ،

فنهلت من ينبوع الحسن حتى ارتويت .

ولكن البطر بالنعمة قد يرتدى قناع الضجر

ومن أمارات خيبتى أنى فرحت بالفراق ،

وعلى مدى طريقى الطويل لم يفارقنى الندم

وحتى اليوم يرمقنى هيكلها العظمىّ ساخرا .





البلهاء

كانت خادمة بلهاء ويدعونها الشيخة ، وكانت الست وحيدة فى الحلقة السادسة . وكان البيت يضطرب أحيانا تحت وطأة الرغبة . وتسلل الاضطراب إلى روح الخادمة البلهاء فاستحوذت عليها الكآبة . وسألتها الست وكانت تعطف عليها :

ـ مالك يا شيخة ؟

فأجابت بتأفف :

ـ أنا ذاهبة ..

فانزعجت الست وتساءلت :

ـ وتتركينني وحدى يا شيخة ؟

فقالت بحدة :

ـ لست وحدك يا فاجرة .

الطاهر

رأت الشيخة رجلا حائرا وهى تسير فى السوق بجلبابها الأبيض وخمارها الأخضر فسألته :

ـ عم تبحث يا رجل ؟



فأجاب بصبر نافذ :

ـ أبحث عن ماء طاهر .

فقالت بلهجة لم تخل من عتاب :

ـ لا يوجد ما هو أطهر من عرق المرأة .

الحيـاة

أجبرتنى ظروف الحيـاة يومـا لأكـون قـاطع طريـق . وبدأت أولى ممارساتى فى ليلة مظلمة فـانقضضت علـى عابر سبيل .

ـ وارتعب الرجل بشدة شـارفت بـه المـوت وهتـف برجاء حار :

ـ خذ جميع ما أملـك حـلالا لـك ، ولكـن لا تمـس حياتى بسوء .

ومنذ تلك اللحظة وأنا أحوم بروحى حول سر الحياة!

فى الحجرة الواسعة

فى المنام رأيتنى فـى حجـرة واسـعة عاليـة السـقف ، خالية من الأثاث عدا مائدة مستديرة فى الوسط حولهـا كرسيان متقابلان . جلست على كرسى وجلـس علـى الآخر صديق حميم وأمام كل منـا فنجـان قهـوة . وثمـة

باب يفضى إلى حجرة أخرى مظلمة جدا لا أدرى شيئا عما بداخلها .

وقال صديقى :

ـ علينا أن ننجز المهمة .

فقلت موافقا :

ـ لا بد من إنجازها .

وفجأة قام صديقى فمضى نحو الحجرة المظلمة واختفى ، وتبين لى بعد ذهابه أن القهوة اختفت من فوق المائدة فناديت عليه .

لم أسمع ردا ولكن ظهر شخص غريب فجلس مكانه وقد لفت انتباهى بعباءته البيضاء . ورغم أننى لم أكن أعرفه إلا أننى قلت لنفسى إن وجوده خير من عدمه ، أما هو فقد وضع أمامه كأسا ، وكأسا أمامى ، وقال :

ـ لنشرب نخب الضوء والظلام .

رفعت الكأس لأشرب ، ولاحت منى التفاتة إلى داخلها فرأيت وجه صديقى الغائب يرنو إلىّ ، فارتعشت يدى وقلت للجالس أمامى :

ـ لا بد من إنجاز المهمة .



اللحـــن

فى حلم ثان وجدتنـى فـى حجـرة متوسـطة يضيئهـا مصباح غازى يتدلى من سقفها . فى ركن منها جلـس جماعة من الرجال والنساء على شلت متقابلة يتسامرون ويضحكون بأصوات مرتفعة . لم يكن فى الجدران باب ولا نـافذة إلا فتحـة صغـيرة فـى اتسـاع عـين منظـار ، مرتفعة بعض الشيء فلم أر منها إلا سمـاء تتـوارى وراء المسـاء . شـعرت برغبـة شـديدة فـى العـودة إلى أهلـى ودارى . ولم أدر كيـف يمكـن أن يتيسـر لى ذلـك . وسألت السمار :

ــ أكرمكم اللّه ، كيف أستطيع الخروج من هنا ؟

فلم يلتفت إلىّ أحد ، وواصلـوا السـمر والضحـك . وغـزت الوحشـة أعمـاقى . عنـد ذاك لاح مـن خــلال الفتحة وجه غير واضح المعالم وقال لى :

ــ إليك هذا اللحن ، إحفظه منـى جيـدا ، وتـرنم بـه عند الحاجة ، وستجد فيه الشفاء من كل هم وغم .

الفتنــة

كنت أتمشى عند الباب الأخضر ، فصادفت درويشا منتحيا جانبا بامرأة . كانت وسيطة العمر ، ريانة الجسم فواحة الأنوثة ، محتشمة النظرة .

ولما اقتربت منهما سمعتها تقول :

ــ يا سيدنا ، إنى أرملة ، أعيش مع شقيقتى ، مستورة والحمد لله ، ولكنى أخاف الفتنة .

فقال لها :

ــ أدى الفرائض .

فقالت بصدق :

ــ لا تفوتنى فريضة .

وأضافت :

ــ وأسمع تلاوة القرآن لدى كل فرصة .

فقال :

ــ لن يمسك الشيطان .

فقالت :

ــ ولكنى أخاف الفتنة .



المعركة

رجعت إلى الميدان بعد زيارة للمشهد الحسينى . رأيت زحاما يحدق براقصة وزمار . الزمار يعزف ، والراقصة تتأود لاعبة بالعصا ، والناس يصفقون ، والوجوه تتألق بالسرور والنشوة . فكرت غاضبا كيف أفض الجمع . ولكن فى لحظة نور رأيت فى مرمى الزمن الجميع يهرولون نحو القبر . كأنهم يتسابقون حتى لم يبق منهم أحد .

عند ذاك وليتهم ظهرى وذهبت .

الأضواء

استعدت الكاميرا فى موقعها ، وضبطت الأضواء ، وأشار المخرج ببدء التصوير .

تلاقى حبيبان ودار حوار. انتهى تصوير اللقطة .

همس الموزع للمنتج وهما يجلسان على مبعدة يسيرة وراء الكاميرا :

ـ لن تصلح لأدوار الحب بعد اليوم ، قلبى معها ..

أشعلت الممثلة سيجارة لتريح أعصابها من عناء التمثيل .

ووقف المؤلف فى زاوية بعيدا عن الأضواء يصغى ويتابع ، لا يبالى به أحد .

على مائدة الرحمن

عمرت مائدة الرحمن بالصائمين . ولما ترامى إليهم الأذان تأهبوا وبسملوا ، وهتف رجل ذو شأن :

ـ طعامنا حرام على من بقلبه زيغ .

وندت عن رجل ضحكة عالية لفتت إليه الأنظار .

أمسك عن الضحك وقال :

ـ عندى غذاء أجمل فأصغوا إلىّ !

ولكنهم أقبلوا على الطعام وهم يسخرون من الرجل .

ولما امتلأت البطون وثقلت الأجفان فغفوا إغفاءة قصيرة . ورأوا فى نومهم عالما يفتن ويسحر . ولما استيقظوا توجهوا نحو الرجل للضاحك فلم يجدوا له أثرا .

وترك الغائب فى كل قلب لوعة ..

البليــــاردو

جلسـت فـى ركـن المقهـى الـذى تقـوم فيـه مـائدة البلياردو ،

وجاء رجل نشط وراح يلاعب نفسـه فـيرمى الكـرة مرة ويرد فى الأخرى .

وقلت له بأدب :

ـ هل تسمح لى أن ألاعبك فهو أجلب للمتعة .

فقال دون أن ينظر إلىّ :

ـ بل المتعة أن ألعب وحدى وأن يتفرج الآخرون

ونظرت حولى فرأيت جميع الزبائن يغطون فى النوم .

اللؤلــــؤة

جاءنى شخص فى المنام ومد لى يده بعلبة مـن العـاج قائلا :

ـ تقبل الهدية .

ولما صحوت وجدت العلبة على الوسادة .

فتحتها ذاهلا ، فوجدت لؤلؤة فى حجم البندقة .

بـين الحـين والحـين أعرضهـا علـى صديـق أو خبـير

وأسأله :

ـ ما رأيك فى هذه اللؤلؤة الفريدة ؟

فيهز الرجل رأسه ويقول ضاحكا :

ـ أى لؤلؤة .. العلبة فارغة ..

وأتعجب من إنكار الواقع الماثل لعينى .

ولم أجد حتى الساعة من يصدقنى .

ولكن اليأس لم يعرف سبيله إلى قلبى .

المصادفة

تحت التمثال تقابلنا مصادفة .

توقفت عن السير ، إنه يبتسم ، وأنا أرتبك

صافحته بالإجلال الذى يستحقه فسألنى :

ـ كيف الحال ؟

فأجبت بأدب وحياء :

ـ الحمد لله ، فضلك لا ينسى ..

فقال بصوت لم يخل من عتاب رقيق :

ـ حسن أن تعتمد على نفسك ولكن خيل إلىّ أنك نسيتنى !



فقلت بحياء :

ـ لا أحب أن أثقل عليك ولكن لا غنى عنك بحال .

وافترقنا وقد أثار شجونى . تذكرت عهدى الطويل معه عندما كان كل شىء فى حياتى ، كما تذكرت فضله وأيامه . تذكرت أيضا أطواره الأخرى مثل إعراضه وجفائه ولا مبالاته دون تفسير يطمئن إليه القلب .

رغم كل شىء اعتبرت اللقاء مصادفة سعيدة .

الحنين

كنت ألقاه فى الخلاء وحيدا يحاور الناى ويعزف لجلال الكون .

قلت له يوما :

ـ ما أجدر أن يسمع الناس ألحانك .

فقال بامتعاض :

ـ إنهم منهمكون فى الشجار والبكاء !

فقلت مشجعا :

ـ لكل امرئ ساعة يحن فيها إلى الخلاء .

الطامة

لم ترفض فى حياتها طلبا أو تتجاهل إشارة ،
وكانت تلبى نداء الشوق دون مبالاة بالثمن .
وأنذرها منذر بسوء العاقبة
ولكنها كانت شديدة الإيمان بالغفور الرحيم .

ساعة الحساب

جلس يتناول طعامه فى المطعم الصغير بهدوء وشهية
ذو مظهر مقبول ووجه مرهق .
ولما حدث وقت الحساب قال لصاحب المطعم :
ـ لا تؤاخذنى ليس فى جيبى مليم واحد ، وكنت جائعا لحد الموت .
بهت الرجل ولم يدر ماذا يصنع
وكأنه حرص على أن تبقى الواقعة سرا لا يدرى به أحد .



الغفلة

كالعصافير يمرحون فى كنف الوالدين . البيت صغير والرزق محدود ، ولكنهم لم يتصوروا نعيما يفوق النعيم الذى ينعمون به . وتمادى يوم حار من أيام الصيف بأنفاسه المحملة بالرطوبة فهتفت عصفورة :

ـ أف .. متى يجىء الخريف ؟

وغمغم وهو يراقبهم من بعيد :

ـ لماذا تفرطون فى الأيام المتاحة الطيبة ؟

دعابة الذاكرة

رأيت شخصا هائلا ذا بطن تسع المحيط ، وفم يبلع الفيل ، فسألته فى ذهول :

ـ من أنت يا سيدى ؟

فأجاب باستغراب :

ـ أنا النسيان ، فكيف نسيتنى ؟

ليلى

في أيام النضال والأفكار والشمس المشرقة تألقت ليلى في هالة من الجمال والإغراء .

قال أناس : إنها رائدة متحررة .

وقال أناس : ما هي إلا داعرة .

ولما غربت الشمس وتوارى النضال والأفكار في الظل هاجر من هاجر إلى دنيا اللّه الواسعة .

وبعد سنين رجعوا ، وكل يتأبط جرة من الذهب وحمولة من سوء السمعة .

وضحكت ليلى طويلا وتساءلت ساخرة :

ــ ترى ما قولكم اليوم عن الدعارة ؟





البلاغـة

قال الأستاذ :

ـ البلاغة سحر .

فأمَّنّا على قوله ورحنا نستبق فى ضرب الأمثال .

ثـم سـرح بـى الخيـال إلى مـاض بعيـد يهيـم فـى السذاجة .

تذكرت كلمات بسيطة لا وزن لها فـى ذاتهـا مثـل أنت .. فيم تفكر .. طيب .. يا لك من ماكر ..

ولكن لسحرها الغريب الغامض جـن أنـاس .. وثمـل آخرون بسعادة لا توصف ..

الطـرب

يا له من زمن ، زمن الطرب .

ترسل الحناجر الذهبية أنغامها فتنتشر النشوة كالشـذا الطيب النفاذ .

وتتخلق فى حالة الطرب امرأة جميلـة تعشـقها القلـوب البيضاء . ولكنها لا تعثر لها على أثر فى غير دنيا الطرب .. لقد اختارت قلب الطرب مقاما لها لا تبرحه .



على الشاطئ

وجدت نفسى فوق شريط يفصل بين البحر والصحراء . شعرت بوحشة قاربت الخوف . وفى لحظة عثر بصرى الحائر على امرأة تقف غير بعيدة وغير قريبة . لم تتضح لى معالمها وقسماتها ولكن داخلنا أمل بأننى سأجد عندها بعض أسباب القربى أو المعرفة . ومضيت نحوها ولكن المسافة بينى وبينها لم تقصر و لم تبشر بالبلوغ . ناديتها مستخدما العديد من الأسماء والعديد من الأوصاف فلم تتوقف و لم تلتفت .

وأقبل المساء وأخذت الكائنات تتلاشى ، ولكننى لم أكف عن التطلع أو السير أو النداء .

سر النشوة

حلمت بأننى صحوت من نوم ثقيل على أنفاس رقيقة لامرأة آية فى الجمال ، رنت إلىّ بنظرة عذبة وهمست فى أذنى :

ـ إن الذى أودع فىّ سر النشوة المبدعة قادر على كل شىء فلا تيأس أبدا .

الانبهـار

ذاع عنه أنه عالم بكل شيء . وقصدته الجموع فى ركن الطريق الذى يجلس على أريكة فيه . وقال وسيط خير :

ـ لا وقت للأسئلة السهلة ، هاتوا ما لديكم من أسئلة مستعصية ..

وانهالت عليه الأسئلة المستعصية حقا

وساد صمت عميق ليسمع كلٌّ الجواب الذى يعنيه .

لم أر حركة تدب فى شفتيه و لم أسمع صوتا يند عن فيه .

ورجعت من عنده وسط جموع قد انبهرت بما سمعت لحد الجنون ..

الذكرى

فى يوم السوق بحارتنا اخترقت الجموع امرأة عارية تتهادى . تسير فى ترفع وتذيب مفاتنها الصخور

كف الناس عن البيع والشراء ووقفوا ينظرون بأعين ذاهلة ، كذلك مضت حتى غيبها المنعطف الأخير ، وأفاق الناس من ذهولهم فركبتهم حال جنون ،

واندفعوا نحو المنعطف . فتشوا فى كل مكان ولكنهم لم يعثروا لها على أثر .

كلما خطرت ذكراها على القلوب أكلتها الحسرة ..

النـــدم

حملت إلى أمواج الحياة المتضاربة امـرأة مـا أن رأيتهـا حتى جاش الصدر بذكريات الصبـا . ولـما ذابـت حـيرة اللقاء فى حرارة الذكريات سألتها :

ــ هل تتذكرين ؟

فابتسمت ابتسامة خفيفة تغنى عن الجواب .

فقلت متهورا :

ــ التذكر يجب أن يسبق الندم !

فسألتنى :

ــ كيف تجده ؟

فقلت بحرارة :

ــ ذو ألم كالحنين ..

فضحكت ضحكة خافتة ثم همست :

ــ هو كذلك ، واللّه غفور رحيم !

المعركة

فى عهد الصبا والصبر القليل نشبت خصومة بينى وبين صديق . اكتسح طوفان الغضب المودة فدعانى متحديا إلى معركة فى الخلاء حيث لا يوجد من يخلص بيننا . ذهبنا متحفزين . وسرعان ما اشتبكنا فى معركة ضارية حتى سقطنا من الإعياء وجراحنا تنزف بغزارة .

وكان لا بد أن نرجع إلى المدينة قبل هبوط الظلام .

ولم يتيسر لنا ذلك دون تعاون متبادل .

لزم أن نتعاون لتدليك الكدمات ، ولزم أن نتعاون على السير .

وفى أثناء الخطو المتعثر صفت القلوب ولعبت البسمات فوق الشفاه المتورمة .

ثم لاح الغفران فى الأفق .

حوار الأصيل

إنه جارنا فنعم الجيرة ونعم الجار .

عند الأصيل يتربع على أريكة أمام الباب متلففا بعباءته .

بذلك يتم للميدان جلاله وللأشجار جمالها ، وعندما تودع السماء آخر حدأة يرجع أبناؤه الثلاثة من أعمالهم .

وعشية السفر إلى الحج نظر فى وجوههم وسألهم :

ـ ماذا تقولون بعد هذا الذى كان ؟

فأجاب الأكبر :

ـ لا أمل بغير القانون .

وأجاب الأوسط :

ـ لا حياة بغير الحب .

وأجاب الأصغر :

ـ العدل أساس القانون والحب .

فابتسم الأب وقال :

ـ لا بد من شىء من الفوضى كى يفيق الغافل من غفلته .

فتبادل الإخوة النظر مليا ، ثم قالوا فى نفس واحد :

ـ الحق دائما معك !

الرحلة

بقضاء لا راد له حملنى الإذعان إلى أرض الغربة
وعلمت أن الواقعة آتية لا ريب فيها ، غدا أو بعد غد
انتظر قليلا ولا تتعجل المجهول .
وقال الطيبون : لا تخف فقد سبقناك فى نفس الطريق .
تنبسط أمامى حديقة مترعة بالحسن ، وتذهب الفاتنات وتجىء ،
ودعيت للغناء ، ولكنى شغلت بالخواطر والهواجس .
وانتزعت حواسى لاجتياز الغابة الدامية
لم يبق لى منها إلا ذكريات أشباح وأصداء كوابيس خانقة ، وأثر باق لمعركة طاحنة
وقالوا : آن لك التجوال فى رياض الشمال ، ولكن قلبى نازعنى إلى الملعب بين السبيل والتكية
وصلت وأنا ألهث .
الوجه والإهاب والنظر كل شىء تغير

وتلقانى الأحبة ، ومن حولهم ترامى الجليل بهوائه وضجيجه

وقال لى قلبى : استقر فى ظله ، وليحفظه الصمد .

الشذا

نظر إلى الوراء طويلا فلم يبق منه إلا ما يبقى من الورد بعد جفافه . اللهو وصفاء الأحلام ودفء السيدة الحنون

هى دائما كبيرة ولكن لا تجوز عليها الشيخوخة ودائما تلهج بالدعاء .

وتعرض بعد الظلام ناشرا لواء الفراق

وتحرك طابور الوداع وتأوه العريس الذى لم يتم زفافه ،

وتلاشت وجوه الحب وعبق الجو بالشذا الطيب .

الثابت والمتغير

ذهبوا إلى السوق ، وبقيت فى البيت وحدى .

وجاءت صغيرة ذات ضفيرتين تتضوع منها رائحة

القرنفل ، تحمل طبقا فارغا ، مرسلة من قبل أمها بمهمة خاصة .

ولما لم تجد أمى همت بالذهاب ، ولكنى دعوتها للانتظار ، فانتظرت

وذاب المتسوقون فى السوق ، وزقزقت العصافير طويلا ، يظهرها الصيف ويخفيها الشتاء

وقلت لها لأملأ الزمن :

ـ تخففى من ثيابك فهو أطيب لك .

فقالت بحياء :

ـ عندما يحين الموسم .

وهكذا جمعنا الزمان والمكان والشوق .

أما الزمان والمكان فلا ثبات لهما ، وأما الشوق فلا يورث إلا الحزن .

المهمة

قالت لى أمى :

ـ اذهب إلى جارتنا وقل لها هاتى الأمانة .

فسألتها وأنا أهم بالذهاب :



ـ وما الأمانة ؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ لا تسأل عما لا يعنيك ولكن احفظها عندما تتسلمها كأنما هى روحك .

وذهبت إلى جارتنا ، وبلغتها الرسالة فحركت أعضاءها لتطرد الكسل ، وقالت :

ـ يجب أن ترى بيتى قبل ذلك .

وأمرتنى أن أتبعها ومضت أمامى وهى تتبختر .

وانقضى الوقت مثل نهر جار

وكانت أمى ترد على خاطرى أحيانا ، فأتخيلها وهى تنتظر .

فى وصف العاصفة

زلت قدمى فى ليلة عاصفة ممطرة فآويت إلى دكان عطار . وسألت العطار :

ـ متى تهدأ العاصفة ؟

فأجاب بهدوء :

ـ ربما بعد دقيقة واحدة وربما استمرت حتى مساء

الغد .

ولمحت على ضوء مصباح الدكان شخصا يهرول فى الخارج ، ناشرا فوق رأسه مظلة سوداء . شعرت بأننى لا أراه لأول مرة رغم أننى لا أعرفه . والحق أننى لم أرتح إليه . وقال له العطار :

ـ لا لوم على من يؤثر السلامة فى هذه الليلة .

فقال الرجل وهو يمضى دون توقف :

ـ أنا لا أخلف الميعاد .

وجاءت سيدة جميلة لتلوذ بالدكان ، فنسينا الرجل ومظلته .

ـ الظاهر أن المرأة رأت أن تنتهز الفرصة لتتسوق فسألت العطار :

ـ هل عندك دواء للوساوس والأرق ؟

فأشار الرجل إلى برطمان وقال :

ـ ليس فى الدنيا ما هو أجمل من الصحة وخلو البال .



المخبر

كنت أتأهب للنوم عندما طرق الباب طارق . فتحت الشراعة فرأيت شبحًا يكاد يسد الفراغ أمام عينى وقال :

ـ مخبر من القسم .

ومد لى يده ببلاغ يأمرنى بالحضور مع المخبر لأمر هام .

أصبح من المألوف فى حينا أن يذهب هذا المخبر إلى أى ساكن لاستدعائه . يذهب فى أى وقت ودون مراعاة لأى اعتبار ، ولا مناص من التنفيذ ولا مفر .

ولم أجد جدوى فى المناقشة . فرجعت إلى غرفة نومى لارتداء ملابسى .

سرت فى إثره دون أن نتبادل كلمة واحدة .

ولمحت فى النوافذ أشباح الناس يتابعوننا ويتهامسون .

إنى أعرف ما يتهامسون به ، فقد طالما فعلت ذلك وأنا أتابع السابقين .

الريح تفعل ما تشاء

قد ضجرت الساعة من دقة عقاربى فى الزمان الأول .

وعقدت حبال العزيمة حول ذراع الأمان ونمت .

ولكن حملتنى ريح الغربة فوق السحاب صادعة بأمر المجهول .

لم يكن فى نيتى ما أفعل ولا فعلت ما كنت نويت .

وأيقظنى رفيقى الرقيق من غفوتى قائلا : « غدًا نسفك الدماء »

فقلت مشهدا الكون على استسلامى المطلق « لتكن مشيئة الله » .

المرشد والبائعة

من أول يوم اكتشفت أن عملى فى المنطقة يحتم على التجوال المستمر فى أنحائها . سألت عن مرشد طريق فدلونى على رجل يقيم بالدرب الأحمر ، تبين لى أنه أعمى ، ولكن أهل الحل والعقد أكدوا لى صدق فراسته

وعمق خبرته ، وحفظه زوايا الحى عن ظهر قلب .

وتأبطت ذراعه فسار بى بقدمين ثابتتين ، وسرعان ما وثقت به وآنست إليه .

كان يمكن أن أبقى معه وحده حتى نهاية العمر ، لولا أن صادفتنا ذات يوم بائعة خبز ذات حسن ، فودعت مرشدى وسرت معها . وتجمعنى الطريق أحيانا بمرشدى القديم ، فأحييه بوجد ، ولكنه يرد على بفتور ويمضى كل فى سبيله .

وربما حلا لنا فى بعض أوقات الفراغ أن نذكره فى سياق الدعابة والعبث ، ولكن هيهات أن ينكر عاقل فضله .

سلم نفسك

خطر على بالى فتفجر قلبى بالشوق . ذهبت إلى مسكنه فى آخر مساكن الضاحية المحفوفة بالحقول . رحب بى بود قائلا :

ــ مضى عمر على آخر زيارة ، ولكنك جئت فى وقت مناسب .

قال ذلك وهو يشير إلى خوان قصير ، وضعت عليه صينية بالعشاء المكون من سمك مشوى وزيتون مخلل وخبز ساخن .

ودعانى للعشاء فجلست .

وما كدنا نبسمل حتى ترامى إلينا صوت من مكبر يصيح « سلم نفسك » .

وثب إلى مفتاح الكهرباء فأغلقه ، فساد الظلام . وسرعان ما انهال علينا الرصاص من جميع الجهات كالمطر .

وقلت لنفسى وأنا أرتعد من الرعب « سعيد من يستطيع أن يسلم نفسه » .

بعد الخروج من السجن

غص البهو بطلاب الحاجات .

جلسنا نتبادل النظر فى قلق ، ونمد البصر إلى الباب العالى المفضى إلى الداخل المغطى بجناحى ستارة عملاقة خضراء .

متى يبتسم الحظ ويجىء دورى ؟.. متى أدعى إلى



المقابلة فأعرض حاجتى وأتلقى الرجاء ؟ الباب مفتوح لا يصد قاصدا ، ولكن لا يفوز باللقاء إلا أصحاب الحظوظ .

على ذاك تمضى الأيام ، فأذهب بصدر منشرح بالأمل ثم أعود كاسف البال .

وخطر لى خاطر : لماذا لا أختفى فى مكان فى الحديقة حتى إذا انفض السامر وخرج الرجل لرحلته المسائية رميت بنفسى تحت قدميه .

لكن الخدم انتبهوا لتسللى ، وساقونى إلى القسم ، ومن القسم إلى السجن ، فألقيت فى ظلماته .

عبثا حاولت تبرئة ساحتى

كيف أذهب طامعا فى وظيفة شريفة ، فينتهى بى المآل إلى السجن ؟

وانتهى إلينا التهامس بأن الرجل الجليل سيزور السجن ، ويتفقد حاله ، ويستمع إلى شكاوى المظلومين .

عجبت أن تيسر لى فى السجن ما تعذر فى الحياة .

وهذه حاجتى إلى عطفه تشتد وتتضاعف

وأحنيت رأسى بين يديه وقصصت قصتى

لم يبد عليه أنه صدّق و لم يبد عليه أنه كذّب

قلت بضراعة :

ــ كل ما أتمنى أن يسمح لى باللقاء بعد الخروج من السجن .

فقال بصوت هادئ وهو يهم بالسير :

ــ بعد الخروج من السجن !

النهـــر

فى دوامة الحياة المتدفقة جمعنا مكان عام فى أحد المواسم .

من تلك العجوز التى ترنو بنظرة باسمة ؟

لعل الدنيا استقبلتنا فى زمن متقارب .

واتسعت ابتسامتها فابتسمت رادا التحية بمثلها .

سألتنى :

ــ ألم تتذكر ؟

فازدادت ابتسامتى اتساعا

قالت بجرأة لا تتأتى إلا للعجائز :

ــ كنت أول تجربة لى وأنت تلميذ ..



وساد الصمت لحظة ثم قالت :
ــ لم يكن ينقصنا إلا خطوة !
وتساءلت مذهولا : أين ضاعت تلك الحياة الجميلة !.

حديث من بعيد

في حارتنا بيت مسكون لا يقربه أحد ، فهو مغلق الباب والنوافذ ، مستسلم لعوامل البلى .

أمرّ به فلا أصدق عينيّ وأقول لنفسى : ما هى إلا أسطورة من أساطير الأولين .

وفاجأنى المطر يوما وأنا أمر أمام بابه ، وأسخر منه كعادتى ، وإذا بصوت يتهادى إلىّ هادئا :

ــ إن كنت فى شك ، بت ليلة فى البيت يأتك البرهان بلا وسيط .

ركبنى الرعب وانعقد لسانى ،
وتذكرت ما قرأت عن عالم الأرواح فقال الصوت :
ــ كن مع العقل وإلا تعرضت لتجربتنا القاسية .
واشتد المطر ، فسكت الصوت كأنما قد ذاب فيه .

الــدرس

كنت منطلقا مهرولا لأشهد حلقــة الذكـر . مـررت في طريقى بعجوز رث الملبس تعيس المنظر وهو يبكى . صرفت نفسى عن الانشغال به أن يفوت علىّ قصدى . ولما احتل الشيخ مكانه وســط حلقـة الذكـر نظـر فيمـا حوله حتى وقــع بصـره علـىّ فأومـأ إلىّ لأقـترب منـه . ومال على أذنى هامسا :

ــ أهملت العجوز الباكى فأضعت فرصـة للخـير لـن تحظى بمثلها باستماعك إلى درسى اليوم ..





فيلسوف صغير جدا

يطاردنى الشعور بالشيخوخة رغم إرادتى وبغير دعوة . لا أدرى كيف أتناسى دنو النهاية وهيمنة الوداع . تحية للعمر الطويل الذى أمضيته فى الأمان والغبطة . تحية لمتعة الحياة فى بحر الحنان والنمو والمعرفة .

الآن يؤذن الصوت الأبدى بالرحيل . ودع دنياك الجميلة واذهب إلى المجهول . وما المجهول يا قلبى إلا الفناء . دع عنك ترهات الانتقال إلى حياة أخرى . كيف ولماذا وأى حكمة تبرر وجودها ؟ أما المعقول حقا فهو ما يحزن له قلبى . الوداع أيتها الحياة التى تلقيت منها كل معنى ثم انقضت مخلفة تاريخا خاليا من أى معنى .

(من خواطر جنين فى نهاية شهرة التاسع)



أصل الحكاية

الست فى الشرفة ترنو إلى أسفل من وراء الخصاص بعينين ملؤهما اليقظة والحنان . الصبى يلعب أسفل البيت ويغنى . وبين الحين والحين يمضى إلى حارة من الحارات التى تصب فى جوانب الميدان آتية من أنحاء المدينة المترامية . وعند المغيب ينتزع الصبى نفسه من دنيا اللعب والسياحة ويدخل البيت .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا .

خلت الشرفة من الحنان .

وأدخل الصبى داخل حارة فلم يرجع .

المتنبىء

دعينا إلى سهرة فى بيت صديق . وجلسنا حوله فى الحديقة الصغيرة يسكرنا شذا زهر البرتقال .

وحدثنا الصديق عن مشروع قيم لعلنا نسهم فيه . ولمحت على ضوء عود ثقاب زميلا غائبا عن وجودنا فى دنيا أحلامه ، فلمسته بكوعى ، ولكنه لم يلتفت نحوى .

وفى طريق العودة قلت له :

ــ يقينا أنك لم تسمع كلمة مما قال صاحبنا .

فقال ببساطة مثيرة :

ــ قلبى حدثنى بأنه سيرحل عن دنيانا قبل طلوع الشمس !

العجب أن صاحب المشروع رحل حقا قبل شروق الشمس .

أما الأعجب فهو أن الصديق الآخر الذى تنبأ رحل عند الفجر ،

ومن يومها كلما جاء الزمان بساعة طيبة ، أبيت أن أغيب عنها بشىء مضى أو بشىء آت .

شكوى القلب

ثقل قلبى بعد أن أعرض عنى الزمن ، وراح الطبيب يبحث عن سر علته فى صورته التى طبعتها الأشعة . تأملته بفضول حتى خيل إلىّ أنه يرانى كما أراه وأنّا نتبادل النظر . وجالت أيضا نظرة عتاب فى عينيه ، فقلت له كالمعتذر :

ـ طالما حملتك ما لا يطاق من تباريح الهوى .

فإذا به يقول :

ـ والله ما أسقمنى إلا الشفاء :

ملخص التاريخ

أحببت أول ما أحببت وأنا طفل ، ولهوت بزمنى حتى لاح الموت فى الأفق . وفى مطلع الشباب عرفت الحب الخالد الذى يخلفه الحبيب الفانى . وغرقت فى خضم الحياة ، ورحل الحبيب ، واحترقت الذكريات تحت شمس الظهيرة . وأرشدنى مرشد فى أعماقى إلى الطريق الذهبى المفروش بالمعاناة ، والمفضى إلى الأهداف المراوغة . فطورا يلوح السيد الكامل ، وطورا يتراءى الحبيب الراحل .

وتبين لى أن بينى وبين الموت عتابا ، ولكننى مقضى على بالأمل .

رجل الأقدار

لم أنس ذلك الرجل . كان معلمى فترة طويلة من العمر . اشتهر فى حياته بتلاحق المحن ، والتعاسة الزوجية ، ورقة الحال . ولكنه اشتهر أيضا بالصبر والقدرة على معايشة الألم والانغماس فى الكآبة . ولما تقدم به العمر انضاف إلى متاعبه تصلب الشرايين . وأخذت ذاكرته تضعف وتتلاشى . ومضى ينسى فيما ينسى خسائره وجميع ما ناله من عنت الحياة ، فخف عبئه وهو لا يدرى . وطعن فى المرض ، فنسى زوجته تماما وأنكرها ، وأصبح يتساءل عن سر وجودها فى بيته . وذهب عنه الكثير من كدره . وبلغ به المرض مداه فنسى شخصه ولم يعد يعرف من هو ، وبذلك تسنم قمة الراحة ، هكذا أفلت من قبضة الحياة القاسية حتى غبطه من كان يرثى إله .



الصفح

إعجابى بك يا سيدتى يفوق أى حساب . إنك تنورين المكان بصفاء شيخوختك . تلقين الإساءة بالصمت وتغفرين للمسيئين إليك . فلم أعرف أمّا قبلك بهذا الوفاء .

قلت لها يوما :

ـ إنك ضحية القسوة والأنانية ..

فقالت باسمة :

ـ بل إنى ضحية الحب .

ولما قرأت الدهشة فى وجهى قالت :

ـ أنت تتوهم أن سلوكهم معى صادر من قسوة وأنانية ، الحقيقة أنه صادر من حبهم الشديد لأبنائهم ، وهكذا كنت أحبهم ، ومن أجل ذلك قد صفح قلبى عنهم .

الضحكة

وقفت فوق فوهة القبر ألقى نظرة الوداع على جثة العزيز التى يعدونها للرقاد الأخير . ترامت إلى ضحكته المجلجلة قادمة من الماضى الجميل ، فجلت بنظرى فيما حولى ، ولكنى لم أر إلا وجوه المشيعين المتجهمة .

وعند الرجوع من طريق المقابر همس صديق فى أذنى :

ـ ما رأيك فى ساعة راحة بالمقهى !

وسرت الدعوة فى أعصابى برعشة ارتياح . ونشطت قدماى إلى حيث المجلس ، وقدح الماء المثلج والقهوة المحوجة ، ومناجاة اللاحقين عن السابقين .

الاختيار

ذهبت إلى السوق ، حاملا ما خف وزنه وغلا ثمنه ، واتخذت موضعى منتظرا رزقى . وهدأ الضجيج فجأة واشرأبت الأعناق نحو الوسط . نظرت فرايت ست

الحسن تتهادى فى خطى ملكة على أحسن تقويم . سلبت عقلى وإرادتى قبل أن تتم خطوة ، فنهضت لأتبعها مخلفا ورائى العقل والإرادة وأسباب رزقى . حتى دخلت بيتا صغيرا أنيقا يطالع القادم بحديقة الورد . واعترض سبيلى بواب مهيب الجسم حسن الهندام وحدجنى بنظرة مستنكرة فقلت :

ـ إنى على أتم استعداد لأهبها جميع ما أملك .

فقال الرجل بلهجة قاطعة :

ـ إنها لا ترحب بمن يجيئون إليها هاجرين عملهم فى السوق .

السؤال

راحت القافلة تخوض الصحراء ، يقودها عزيف الناى ، ودق الطبول ، والصمت من حولها محيط ، ولا يبدو أن لشىء نهاية . وخطر لى أن أتساءل عن الموضع الذى يجب صاحب القافلة أن يسير فيه .

سمعنى جار فقال :

ـ فى مقدمة القافلة كما يليق بمقامه . ولكن ماذا دعاك للسؤال ؟

وإذا بجار آخر يقول :

ـ بل لعله فى المؤخرة ليراقب كل حركة ، ماذا يهمك من ذلك ؟

ولم أجد ما أجيب به . وظننت أن الأمر انتهى ، وأننى سأعرف الجواب عند انتهاء الرحلة .

ولكنى وجدت الرءوس تتقارب ، والأعين تسترق النظر إلىّ ، والريبة تتفشى فى الجميع . رباه كيف أقنعهم بأننى لم أقصد سوءا . وأننى لا أقل عن أى منهم ولاءً للرجل ؟

ودنا منى رجل صارم الوجه وقال لى :

ـ اترك القافلة ودعنا فى سلام .

ولم أر بدا من الخروج لأجد نفسى فى خلاء مطبق وكرب مقيم .



فى الظلام

كنت راجعا إلى بيتى أخوض ظلمات الليل ولا بصيص نور يشع فى الظلماء ، وارتطمت بشبح فوقفت حذرا متوثبا وأنا أتساءل :

ــ من أنت يا عبد الله ؟

فقال :

ــ لعلك صاحب الحظ الذى أبحث عنه .

ــ أى حظ تعنى ؟

فقال بعذوبة :

ــ إنى أدعوك إلى سهرة فى بيتى يجول فيها الحب والطرب .

فخطر لى أنه يهذى .

وفى لحظة الشك غابت أنفاسه المترددة ، فعلمت أنه اختفى .

وغصنى الندم على إفلات فرصة قد تكون هى الحظ المأمول .

وما زلت أدور فى الظلام مناديا حتى بح صوتى .

أقوى من النسيان

طـالعنى وجهـه بوضـوح ومـن قريـب بقـــوة نفـــاذة وهمس فى أذنى :

ـ تذكرنى لتعرفنى حين ألقاك .

ولما صحوت لم تغب عنى صورته . وكم شغلت عنه بـالعمل حينـا وبـاللهو حينـا ، ولكنـه يعـود بكـل قوتـه وكأنه لم يغب لحظة واحدة .

وأتساءل تحت وطأة القلق: متى يلقانى ؟. كيف يتـم اللقاء ؟ وما الداعى إلى ذلك كله ؟

ويندر أن أطرد عنـــى الهواجـس حتـى فـى الأحضـان الدافئة ..

ذكاء الجسد

فوق السطح وقفا يتناجيان ، هـو أطـول قامـة وهـى أجمل وجها ، أما أنا فألعب بـالطوق مـرة ثـم أراقبهمـا ولا أفهم . ويغيبان فى حجرة السطح قليلا ثم يرجعـــان



فأعود إلى استراق النظر بمزيد من الحيرة .

وجاء الإدراك متعثرا من خلال الأعوام الحامية ..

الشروق والغروب

رأيته فى حالين مختلفين .

مرة والشمس تشرق عليه فبدا غاية فى البهاء والجلال ، يتكلم فيجد السامع الحكمة فيما يفهمه من كلامه ، والشعر فيما لا يفهمه .

ومرة والشمس تغيب عنه فبدا ضئيلا مسكينا يهرول فى أسمال بالية ، يتكلم فيجد السامع الابتذال فيما يفهمه من كلامه ، والبلاهة فيما لا يفهمه .

الشبيه

كان الشبه العجيب بين القاضى والمتهم ملفتا لأنظار النساء والرجال الذين صحبوا جارتهم أم المتهم إلى المحكمة .

وتذكر أناس منهم بكرى المرأة الذى فقدته فى زحام

المولد . ولكن أحدا لم يربط بحال بين الولد التائه والقاضى ، وقالت امرأة همسا :

ـ القاضى ابن ناس أما الولد المفقود فلا يقع إلا فى أيدى أولاد الحرام .

وكانت الأم قد نسيت بكريها تماما ، ولم تعد تفكر إلا فى ابنها القابع فى القفص .

حتى نطق القاضى بالحكم الرهيب .

وعند ذاك دوى الصوات فى قاعة الجلسة .

ربة البيت

يا ربة البيت اصحى ، صلى ثم ابسطى يديك بالدعاء .

جهزى الفطور وادعى إلى المائدة رجلك وأولادك .

عاونى الصغار على تنظيف أنفسهم وكشرى لمن يركن إلى الكسل .

اكنسى بيتك ورتبيه وتسلى بترديد أغنية .

سوف يجمعهم الحظ السعيد حول مائدة العشاء إذا

سمح الدهر

ويبقى الأولاد للمذاكرة ، ويذهب الرجل إلى المقهى للسمر .

اغتسلى ومشطى شعرك وغيرى ملابسك وبخرى غرفة النوم . قد شهد اليوم ما يستحق الشكر والحمد .

تذكرى ذلك إذا جاء اليوم الذى يتفرق فيه الجميع كل إلى سكنه

واليوم الذى لا تجد هذه الذكريات من يتذكرها .

سيدتى الحقيقة

عرفت منازل الحقيقة فى عصر الفطرة .

عندما تقرفص المرأة أمام طشت الغسيل ، أقرفص قبالتها ، فتلعب يدى فى الماء وتسترق عيناى النظر .

عندما ألهو فوق السطح فى الليالى البدرية ، أمد يدى فى الفضاء لأقبض على وجه القمر .

عندما نزور القبر فى المواسم ، أركز عينى على

جداره لأرى

نعم الرفيق الشغف والمنازل .

شهد الضحك علينا

شهدنا مجلس السمر بالحديقة على أتم ما نكون من العدد والمرح ، ينتقل بنا الحديث من شأن إلى شأن كالنحل بين الزهور ، والجو الرطيب يضج بضحكاتنا .

فى تلك الجلسة نسِيَنا الدهر ونسيناه . وإذا بأحدنا يقول فجأة ، ودون مناسبة ظاهرة :

ـ تصوروا أين وكيف نكون بعد نصف قرن ؟!

الجواب أيها الصديق غاية فى البساطة ، وإن يكن فى الوقت نفسه غاية فى التعقيد ، ولكن لماذا تذكرنا بذلك ؟

اليوم يمر على تلك الجلسة ربع قرن فقط ، على ذاك لم يبق من سمارها إلا اثنان .

ويذكر أحدهما الآخر بقول العزيز الراحل .

ويتنهدان ويتخيلان أين وكيف ما حلا لهما التخيل .

هل حقا عاش أولئك جميعا ، وتبادلوا المودة والأمل ؟!

أصل الحكاية

سارت فى ظل أمها وكان هو يلعب فى الطريق . اسعد ما يسعد أمها ضفيرتها الفواحة بشذا القرنفل . أما هو فكان يلعب الحجلة . توقف قليلا ريثما تمر الأيام وابنتها الصغيرة نظرت إليه نظرة غامضة ، فامتلأ بالخيلاء وانطلق يعدو ليشهد الجميع على قوته وسرعته .

ودعت الأم بالخير لكل مخلوق وهمست :

ـ أخاف عليها من النظرة وأخاف عليه من الجرى . فاشملهما بالرعاية يا رب .

وكان ثمة رجل جالسا فى ركن ممن يقرعون الخواطر فقال لها وكأنما لا يعنيها بالذات :

ـ فلتنظر إليه ما طاب لها النظر ، وليجر هو حتى تخور قواه فيخمد .

مأوى النعمة

ما أجمل العصفور فى طيرانه وشدوه . مرة فى سكرة من النشوة هتفتُ : يا ليتنى خلقت عصفورا . وإذا بى أنقلب عصفورا يحلق ويشدو ويثب من غصن إلى غصن . ومن خبرتى السابقة حذرت القطط والزواحف وعشقت شعاع الشمس . منذ قديم وأنا أغبط العصافير على تحليقها ورؤيتها لجمال حبيبتى الذى لا يبلغه الهائمون فوق الأرض ، أيقنت مع الجهد الضائع أنه لا سبيل إلى الفوز إلا بالطيران واستراق النظر من فوق هامات الشجر . وجعلت أخطف النظرات المحترقة بالأشواق وهى تتهادى فى أعماق البيت . وارتويت برحيق الهناء حتى ثملت . ويوما رأيت فوق سور السطح طبقا مملوءا بالقرطم ، فتحلب ريقى ، ونسيت الحذر وطرت نحو الطبق ، وحططت عليه ، ورحت ألتقم بمنقارى الحب بنهم وسرور . وإذا بيد تقبض علىّ بحنان وصوت عذب يقول :



ـ أخيرا وقعت ..

وأودعتنى القفص ، وقد بعث مسها فى كيانى سكرة لا تجىء إلا من خمر الفراديس .

وكلما فاض كأس حظى بالسعادة ، أقبلت بحسنها الدرى لترنو إلىّ وتقدم لى الماء والغذاء .

وها أنا يغمرنى جنون السرور والفرح .

وفى أوقات الفراغ أتطلع إلى جماعات العصافير فوق الشجرة سعيدة بين الشدو والطيران ، ولكن لا شدوها ولا طيرانها بشىء يذكر إلى جانب قرب الحبيب .

عبد ربه التائه

كان أول ظهور الشيخ عبد ربه فى حينا حين سمع وهو ينادى :

« ولد تائه يا أولاد الحلال »

ولما سئل عن أوصاف الولد المفقود قال :

ـ فقدته منذ أكثر من سبعين عاما فغابت عنى جميع أوصافه .

فعرف بعبد ربه التائه . وكنا نلقاه فى الطريق أو المقهى أو الكهف ، وفى كهف الصحراء يجتمع بالأصحاب ، حيث ترمى بهم فرحة المناجاة فى غيبوبة النشوات ، فحق عليهم أن يوصفوا بالسكارى وأن يسمى كهفهم الخمارة .

ومذ عرفته داومت على لقائه ما وسعنى الوقت وأذن لى الفراغ ، وإن فى صحبته مسرة ، وفى كلامه متعة ، وإن استعصى على العقل أحيانا .

التعارف

وكان لى صديق خطاط ومن مريدى الشيخ فرجوته أن يقدمنى إليه ، فمضى بى إلى الكهف مخترقين صحراء المماليك ، وهناك رأيته وسط صحبه يتبادلون أنخاب المناجاة فى نشوة هادئة نقية ، فقدمنى صديقى بين يديه ولكنه استمر فيما كان فيه غير ملتفت إلىّ مما أضرم الحياء فى قلبى ، ولكن صديقى أخذنى من يدى وجلسنا فى آخر الصف .

وهمست فى أذنه :



ـ الأفضل أن نذهب ..

فهمس فى أذنى :

ـ لقد قبل صداقتك ، ولو كان رفضك لطردك بإشارة من يده

وختمت الليلة بغناء طويل جميل ، ولدى العودة سألنى صاحبى :

ـ ما رأيك فى المكان وأهله ؟

فقلت :

ـ دخلوا قلبى بلا وسيط ، عروتهم (صحبتهم) ساحرة ، أصواتهم عذبة ، والمكان جذاب هادئ ورائحته زكية ..

عندما التقت العينان

مضى زمن قبل أن يلتفت إلىّ وتلتقى عينانا . ولما شاعت ابتسامة فى ملامحه ، وثبت إلى جانبه وقلت :

ـ اقبلنى فى طريقتك ..

فسألنى :

ـ ماذا يدفعك إلينا ؟

فقلت بعد تردد :

ـ أكاد أضيق بالدنيا وأروم الهروب منها .

فقال بوضوح :

ـ حب الدنيا محور طريقتنا وعدونا الهروب .

وشعرت بأننى أنطلق من مقام الحيرة .

الانتظار

ولكن لماذا هذا الكهف بالذات ؟

قيل إن سيدة المكان كانت تطوف بالموقع حول الكهف فى المواسم . وكثيرون قد جنّوا بسحر جمالها وجدّوا فى البحث عنها دون جدوى . وقيل إنها قد تختار قرينها ذات يوم فى الكهف . وقصد الكهف أناس لا حصر لهم .. ولكن عبد ربه التائه ومريديه صمدوا إلى النهاية .

أغلب أحاديثهم وأغانيهم عن المرأة الجميلة ، ينتظرون الرضا ولا يعرفون اليأس .

مأمــور

وجذب انتباهى شخص لا مثيل لنشاطه فـى خدمـة الإخوان ، فسألت عنه ، فقال عبد ربه التائه :

ــ له حكاية فاسمعها . مـا نـدرى ذات ليلـة إلا وقـد اقتحم علينا خلوتنا ويقول :

ــ صدر الأمر بإغلاق الخمارات !

فقلت له :

ــ شرابنا النجوى فاشرب هذه الكأس .

وقدمت له شرابا . وكان سحر المكان قد شـاع فـى جسده وروحه فشرب . ثم تركنا وذهــب . وفـى ليلـة تالية رجع مرتديا ملابس عادية وقال باستسلام :

ــ تركت الخدمة وجئت إليكم ..

فهللنا وكبرنا . ومن ساعتها وهو مندمج فى مودتنا . وفى المواسم يغنى ويرقص حتى مطلع الفجر .

الذكرى المباركة

سألنى صديقى الحكيم عن حلم لا أنساه ، فقلت :

وجدتنى فى خمارة وسط جماعة من أهل الخير والبركة ، نشرب ونغنى . وسأل سائل « ترى من يكون صاحب الحظ السعيد ؟ »

وانزاحت الستار المسدلة على باب الخمارة ودخلت امرأة عارية تموج برحيق الحياة وفتنتها .

ووقفنا ذاهلين ننظر وننتظر . واتجهت المرأة نحوى حتى التصقت بى ، وحلت عقدة شعرها المعقوص فانصب حولنا كموجة عاتية فغطانا .

وثمل الجميع بسعادة شاملة وأنشدنا معًا :

بشرى لنا نلنا المنى





داء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

بالأمس وأنا راجع من السهرة قبيل الفجر اعترضنى فى ظلمة الحارة شخص لم أتبين معالمه وقال لى :

ـ أنا قادم إليك من وراء النجوم .

فهزتنى العزة وقلت بفرح :

ـ من أجلى أنا هبطت ؟

فقال بنبرة لم تخل من امتعاض :

ـ لم تسلم بعد من الخيلاء !

واختفى صاعدا بسرعة البرق

فمن يعيده إلىّ ومعه الغفران ؟!

فسألته :

ـ وماذا كنت تنوى أن تطلب منه ؟

فأجاب متجاهلا سؤالى :

« الحياة فيض من الذكريات تصب فى بحر النسيان . أما الموت فهو الحقيقة الراسخة »



الشكوى

كان الكهف عامرا بالخلان ، والنشوة تذيب الأحجار .

ونفخ نافخ فأطفأ الشموع ، وترددت الأنفاس فى ظلام دامس

وتهادى صوت إليهم يقول : « فى السماء ضجروا من الأفعال الخسيسة والروائح المنكرة »

وذهبت تاركا صمتا ثقيلا ، فقال أحدهم :

ـ إنها رسالة .

فقال آخر :

ـ بل هو أمر .

وانطلقوا فى الأسواق يحملون على كل خسيس ومنكر

وغضب السادة ، فزمجروا بالغضب ، ولوحوا بالعصىّ .

الرقص فى الهواء

ومرة قال لى الشيخ : إن القصص التى تنشر ليست بالقصص الحقيقية ، وأراد أن يقدم لى قصة فقال :

فى أحد أصابيح الربيع جذبتنى ضجة نحو الباب الأخضر . خضت حاجزا من البشر يلتف حول رجل وامرأة قيل إنهما كانا من مجاذيب الحسين . ثم أغواهما الغرام ، فهجرا دنيا الأسرار إلى دنيا العشق ، ورؤيا وهما يترنحان من السكر ، ويترنمان بالأغانى الساخنة .

وكاد الناس يفتكون بهما لولا تدخل الشرطة .

ونسى الأمر مع الزمن . وذات صباح وأنا أسير فى الصحراء رأيت سحابة تهبط كالطائرة أو السفينة حتى صارت فى متناول الرؤية الواضحة .

رأيت على سطحها رجلا وامرأة يرقصان ، وسمعت صوتهما قائلا :

ـ متى تصعد يا عبد ربه !



عبير من بعيد

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ساقتنى قدماى إلى القبر المهجور الذى رحل جميع من كانوا يعنون بتذكره . وجدته آيلا للسقوط وعليه طابع العدم . وصدر نداء خفى من الذاكرة ، فأقبل نحوى جمع من النساء والرجال كما عهدهم الزمان الأول . وردد أحدهم ما قاله لى مرارا : « لا أغير ريقى قبل أن أسمع أغنية الصباح فى الإذاعة »

الخلود

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وقفت أمام المقام الشريف أسأل الله الصحة وطول العمر . دنا منى متسول عجوز مهلهل الثوب وسألنى « هل تتمنى طول العمر حقا ؟ » .

فقلت بإيجاز من لا يود الحديث معه :

ـ ومنذا الذى لا يتمنى ذلك ؟

فقدم لى حقا صغيرا مغلقا وقال :

ـ إليك طعم الخلود ، لن يكابد الموت من يذوقه !

فابتسمت باستهانة فقال :

ـ لقد تناولته منذ آلاف السنين ومازلت أنوء بحمل أعباء الحياة جيلا بعد جيل ..

فغمغمت هازئا :

ـ يا لك من رجل سعيد !

فقال بوجوم :

ـ هذا قول من لم يعان كر العصور وتعاقب الأحوال ونمو المعارف ورحيل الأحبة ودفن الأحفاد .

فتساءلت مجاريا خياله الغريب :

ـ ترى من تكون فى رجال الدهر ؟

فأجاب بأسى :

ـ كنت سيد الوجود ، ألم تر تمثالى العظيم ؟ ومع شروق كل شمس أبكى أيامى الضائعة وبلدانى الذاهبة ، وآلهتى الغائبة !



السمع والطاعة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قلت له بخشوع وعيناى لا تفارقان طلعته :

ــ لم أر أحدا فى مثل بهائك من قبل .

فقال باسما :

ــ الفضل لله رب العالمين .

ــ أريد أن أعرف من تكون يا سيدى ؟

فقال بهدوء وكأنه يتذكر :

ــ أنا الذى كان يوقظك من النوم قبل شروق الشمس .

أصغيت باهتمام ، فواصل :

ــ أنا الذى ناصرتك على الكسل فانطلقت مع العمل .

فكرت بعمق فيما قال ، واستمر هو :

ــ أنا الذى أغراك بحب المعرفة .

فهتفت :

ــ نعم .. نعم .

ـ وجمال الوجود أنا الذى أرشدتك إلى منابعه .

ـ إنى مدين لك إلى الأبد .

وساد صمت متوتر ، وشعرت بأنه جاء يطالبنى بشىء ، فقلت :

ـ إنى طوع أمرك

فقال بهدوء شديد :

ـ جئت لأضع فوق عملى نقطة الكمال .

سؤال عن الدنيا

سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه النساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء ، فأجاب جادا :

ـ هذا من فضل الملك الوهاب .

فأشرت إلى ذم الأولياء للدنيا ، فقال :

ـ إنهم يذمون ما ران عليها من فساد .



المشى فى الظلام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

عرفت الرجل فى طورين فى حياته الطويلة .

عرفته فى شبابه محبا للعبادة ، ملازما للمسجد ، مأخوذا بسماع القرآن الكريم .

وفى شيخوخته ساقه قدره إلى الخمارة ، فأدمن الخمر متناسيا ما لا يهمه .

وكان يرجع إلى بيته فى الهزيع الأخير من الليل ، ثملا يترنح ، ويغنى أغانى الشباب ، خائضا الظلمة الحالكة .

وحذره محبوه من المشى فى الظلام ، فقال :

ـ حراس من الملائكة يحيطون بى ، ويشع من رأسى نور يضىء المكان ..

قـــول

قال الشيخ عبد ربه ذات ليلة فى سهرة الكهف :

ـ ما أجمل قصص الحب ، عفا اللّه عن الزمــن الـذى يحييها ويميتها .

تعريــف

سألت الشيخ عبد ربه :

ـ ما علامة الكفر ؟

فأجاب دون تردد :

ـ الضجر .

سيدتى الجميلة

قال الشيخ عبد ربه :

ـ حدث ذلك وأنا أسير بين الطفولة والصبا .

رأيت فوق الكنبة الوسطى تحت البسملة ، امرأة جالسة



لم أشهد فى حياتى شيئا أجمل منها . ابتسمت إلىّ فذهبت إليها ، فحنت علىّ ، وقبلتنى ، ووهبتنى قطعة من الملبن . وكتمت السر ليدوم العطاء . وكلما ذهبت إلى الحجرة ، رجعت مجبور الخاطر بقبلة وقطعة من الحلوى .

ويوما ذهبت كالعادة ، فوجدت الحجرة خالية .

هل أفقد الجمال والسعادة ؟

وسألت أمى عن الضيفة الجميلة الكريمة .

فدهشت لسؤالى ، كما دهش أبى ، وجعلت أحلف بأغلظ الأيمان .

ولم يصدقا حرفا مما حكيت ، وساورهما القلق طويلا.

وظلت الكآبة كامنة فى الأعماق حتى هلت ليالى القمر .

على وشك الهروب

حدث الشيخ عبد ربه التائه قال :

ــ أغرتنى نشوة الطرب ذات مرة بالتمادى فى الطرب حتى طمعت أن أثب من الطرب الأصغر إلى الطرب الأكبر ، فسألت اللّه أن يكرمنى بحسن الختام .

عند ذاك همس فى أذنى صوت « لا بارك اللّه فى الهاربين » .

عندما

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ـ متى يصلح حال البلد ؟

فأجاب :

ـ عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة ..

ساعة البريد

فى تلك الليلة من ليالى الكهف اشتدت الريح وانهل المطر . ولعبت دفقات الهواء المتسللة من المدخل ذؤابات الشمع ، فخفقت القلوب بعنف . ومدوا الأبصار إلى المدخل وانتظروا فازداد خفقان القلوب .

وهمس أحدهم :

ـ يقولون إن ليلة هذا العام مباركة .

وتطلعت القلوب إلى المدخل بكل ما تملك من قوة .



وترامى إليهم صفير فهبوا واقفين ، وعند ذاك دخل ساعى البريد بزيه المألوف وحقيبته ، يكاد يغرق فى الماء الذى تشربته ثيابه .

وبهدوء أعطى كل يد ممدودة رسالة وذهب دون أن ينبس.

وفضوا الظروف ونظروا فى الرسائل على ضوء الشموع .

وجدوها بيضاء لاشية فيها .

وهتف عبد ربه « العقبى للصابرين » .

عزرائيل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

استدعانى المأمور يوما وقال لى :

ـ كلماتك تدفع الناس إلى التمرد ، فحذار !

فقلت له :

ـ أسفى على من يطالبه واجبه بالدفاع عن اللصوص ومطاردة الشرفاء !

فصاح بى :

ـ هذا إنذار نهائى ..

ولما كان عزرائيل يخف لنجدتى فى الملمات ، فقد تجلى ثوان للمأمور ، حتى ارتعدت مفاصله ، وسقط عن كرسيه هاتفا :

ـ الله بينى وبينك !

الرحمة

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ـ كيف لتلك الحوادث أن تقع فى عالم هو من صنع رحمن رحيم ؟

فأجاب بهدوء :

ـ لولا أنه رحمن رحيم ما وقعت !

الواعظة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

اعترضتنى فى السوق امرأة آية فى الجمال ، وسألتنى :

ـ هل أعظك أيها الواعظ ؟



فقلت بثقة :

ـ أهلا بما تقولين .

فقالت :

ـ لا تعرض عنى ، فتندم مدى العمر على ضياع النعمة الكبرى .

فى الحظيرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حلمت بأننى واقف فى حظيرة أغنام مترامية الأطراف . وكانت تأكل وتشرب وتتبادل الحب فى طمأنينة وسلام . تمنيت أن أكون أحدها ، فكنت جديا بالغ القوة والجمال .

ويوما جاء صاحب الحظيرة يتبعه الجزار حاملا سكينه .

إنتهـاء المحنـة

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ـ كيف تنتهى المحنة التى نعانيها ؟

فأجاب :

ـ إن خرجنا سالمين فهى الرحمة ، وإن خرجنا هالكين فهو العدل .

لا تصدق

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءنى رجل وقال لى : « لا تصدق .. ما أنت إلا ابن الصدفة العمياء .. وصراع العناصر .. بلا هدف جئت .. وبلا هدف تذهب .. وكأنك لم تكن »

فقلت له « سبق أن صدق أبوك ما لا يجب تصديقه . فخسر الراحة والنعيم » .



الفعـل الجميـل

حدث الشيخ عبد ربه التائه قال :

عثرت يوما على حقيبة تحوى كنزا من المال وفيها ما يدل على شخص صاحبها وعنوانه .

وكـان مـن المنحرفـين الذيـن ابتليـت بهـم البـلاد ، فقررت ألا أردها إليه . وأودعتها سرًا بدروم رجل فقير من أصحابنـا عـرف بـالتقوى ، وأنـا لا أشـك فـى أنـه سينفقها فـى سبيل الله . ثـم علمـت أنـه ردهـا إلى صاحبها نازلا عن حقه الشرعى فيها ، فحزنت وأسفت .

ثـم توفـى صاحبنـا التقـى الفقـير ، فهرعـت إليـه ، وغسلته وكفنته ، وحملته إلى الجـامع ، وصليـت عليـه . ولما انتهت الصلاة لمحت بين المصلين خلف نعشه الرجـل الغنى المنحرف وهو يبكى بحرارة .

واهتز فؤادى وقلـت « سبحانك يـا مـالك الملـك ، تعلم ما لا نعلـم . وربمـا جـاءت الصحـوة بـإذنك مـن حيث لا يدرى أحد » .

دعـــاء

أصابتنى وعكة فزارنى الشيخ عبد ربه التائه ، ورقانى ودعا لى قائلا :

« اللهم منّ عليه بحسن الختام ، وهو العشق »

العريـس

سألت الشيخ عبد ربه التائه عـن مثلـه الأعلى فيمـن عاشر من الناس ، فقال :

ـ رجـل طيـب ، تجلـت كراماتـه فـى المداومـة على خدمة الناس وذكر الله ، وفى عيد ميــلاده المائـة سـكر ورقص وغنى وتزوج من بكر فى العشرين .

وفى ليلة الدخلة جاءت كوكبة من الملائكــة فبخرتـه ببخور من جبل قاف .



العزلة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كنت أعبر ميدانا غاصا بالخلق فرأيت مجذوبا يضرب بعصاه فى جميع الجهات كأنما يقاتل كائنات غير منظورة ، حتى خارت قواه ، فجلس على الطوار ، وراح يجفف عرقه . وطيلة الوقت لم يبال به أحد ، فاقتربت منه وسألته :

ـ ماذا كنت تفعل يا عبد الله ؟

فأجاب بحنق :

ـ كنت أقاتل قوة جاءت تروم القضاء على الناس ولكن لم يفهم عملى أحد ولم يعاونى أحد .

الســـر

طالما سمعت الحكايات عن الملاك المتجسد فى صـورة امرأة ، وكم بحثت عنه فى الميادين والطـرق والحـوارى وأنا أقول لنفسى : إن رؤيته تضارع رؤية النور فى ليلـة القدر .

وفى ليلة الموسم المباركة سمعت همسا بأنه سيمر عند السبيل حين سطوع القمر . وتجولت حول السبيل بنيـة العاشق وعزيمة البطل . وإذا بامرأة تلوح لفترة قصـيرة ، فـاقتحمنى وجههـا السـافر الملائكـى وغمرنــى بالهيــام والنشـوة ، ولكنـى لم أسع وراءهـا لعلمــى باسـتحالة العبور من دنيا البشر إلى دنيا الملائكة .

عند ذاك انكشف لى سر حبى الأول .





صوت القبر

قال الشيخ عبد ربه التائه : كنت أسير فى طريق المقابر راجعا من سهرة الخمارة . تسلل إلىّ صوت من قبر وهو يسأل :

ـ لماذا انقطعت عن زيارتنا والحديث معنا ؟

فأجبته :

ـ لا يحلو لكم الكلام إلا عن الموت والأموات ، وقد مللت ذلك .

صفحة القلب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

رحت أشاهد قلبى فى مرآة كاسى ، فهالنى صفاؤه ، وقلت له : « من يصدق أنك خفقت بذلك الحب كله؟.. كيف كنت عالما يموج بالنساء والرجال والأشياء ؟

ولم يبق من دليل يا قلبى على حقيقة ما كان ، إلا دموع تفجرت فى الهواء ، وتلاشت فى الفضاء .



الثبات

رأيت الشيخ عبد ربه التائه ماشيا فى جنازة . ولعلمى بأنه لا يشيّع إلا الطيبين ، انضممت إلى صفه حتى صلينا عليه معا . ثم سألت الشيخ عنه فقال :

ـ رجل نبيل وما أندر الرجال النبلاء . أبى رغم طعونه فى العمر أن يقلع عن الحب حتى هلك ..

ذلك الحب

قلت للشيخ عبد ربه التائه :

ـ سمعت قوما يأخذون عليك حبك الشديد للدنيا ..

فقال :

ـ حب الدنيا آية من آيات الشكر ، ودليل ولع بكل جميل ، وعلامة من علامات الصبر .

عتاب الموت

قال الشيخ عبد ربه التائه :

مرة ضايقتنى فكرة الموت أكثر من المعتاد . كنت

أهمّ بالنوم فخطر لى أن الموت قد يزورنى فى النوم فلا يطلع على الصباح . وسألت اللّه السلامة رحمة بأناس ينتظرون معونتى فى اليوم التالى .

واستغفر اللّه طويلا ثم غمغم : « شد ما تشربت عمق التسبيح فى مقام الحيرة » .

الطوفان

قال الشيخ عبد ربه التائه :

سيجىء الطوفان غدا أو بعد غد . سيكتسح النساء والفاسدين العاجزين . ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء . وتنشأ مدينة جديدة تنبعث من أحضانها حياة جديدة . ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يوما واحدا فى المدينة الآتية .

فى التجارة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حذار .. فإننى لم أجد تجارة هى أربح من بيع الأحلام .



الزمن الحلو

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وجدتنى على ربوة أنظر إلى شاشة عرض مبسوطة فى الفضاء . ورقصت فرقة من الفاتنات ، وغنت على إيقاع كونىّ ، فنثرن من حركاتهن لآلئ النور البهيج .

سألت بصوت جهير :

ــ من أنتن ؟

فأجبن :

ــ نحن الأيام القليلة الحلوة التى مرت فى غاية من البهاء والصفاء ولم يشبها كدر .

الراقصان

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما روعنى شىء كما روعنى منظر الحياة وهى تراقص الموت على ذاك الإيقاع المؤثر الذى لا نسمعه إلا مرة واحدة فى العمر كله .

المطارد

قال الشيخ عبد ربه التائه :

هو يطاردنى من المهد إلى اللحد ، ذلك هو الحب .

الفائز

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ذاع فى الحارة أن المرأة الجميلة ستهب نفسها للفائز . وانهمك الشباب فى السباق بلا هوادة . ومضى الفائز إلى المرأة ثملا بالسعادة مترنحا بالإرهاق . وعند قدميها تهاوى قرينا للوجد فريسة للتعب . وظل يرنو إليها فى طمأنينة حتى لعب النعاس بأجفانه .

الهاوية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حتى أنا شهدتنى حجرة الاستقبال وأنا أنتظر راجيا التوفيق .



ويدخل الأب وقورا ودودا ، ولكنه ينذر بالقيود والعواقب .

ودعاني صوت باطني إلى الهرب .

ثم تجيء هي متعثرة في الحياء فأسقط في الهاوية .

الحياء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما تجلى لعيني إلا نور الوجنات وعذوبة الحياء .

أكرر السؤال فتغوص في الصمت أكثر .

تجود بكل ثمين ولكنها من الكلام تجفل .

الضيف

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ـ كان بيتنا عامرا بالأحباب

وذات يوم نزل بنا ضيف لم أره من قبل

وحرصا على راحته أرسلني أبي لألعب بعيدا .

ولما رجعت وجدت البيت خاليا ، فلا أثر للضيف ، ولا للأحباب .

حزن الحياة

سئل الشيخ عبد ربه التائه : هل تحزن الحياة على أحد؟

فأجاب :

ـ نعم .. إذا كان من عشاقها المخلصين ..

القبر الذهبي

قال الشيخ عبد ربه التائه :

رأيت فى المنام قبرا ذهبيا قائما تحت شجرة سامقة غاصة بالبلابل الشادية .

وعلى صورة نقشت بأحرف جميلة واضحة كلمات تقول :

هنيئا لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران .

الكمال

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الكمال حلم يعيش فى الخيال ، ولو تحقق فى الوجود ما طابت الحياة لحى .

السحر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

تبدو الحياة سلسلة من الصراعات والدموع والمخاوف ، ولكن لها سحر يفتن ويسكر .

الوفاء فى الملاح

قال الشيخ عبد ربه التائه :

آه من تلك المرأة الجميلة التى لا وفاء لها .

لا هى تشبع ، ولا عشاقها يتعظون .

طبيعتنا

قلت مرة للشيخ عبد ربه التائه :

قد أرحب بتعب عام متصل ولكنى أضيق بعطلة شهر واحد .

فقال :

طبعنا على حب الجياة وكره الموت .

الكذب الصادق

قال الشيخ عبد ربه التائه :

بعض أكاذيب الحياة تتفجر صدقا .

المشيئـة

قال الشيخ عبد ربع التائه :

فى الكون تسبح المشيئة ، وفى المشيئة يسبح الكون .

الحب المتبادل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

إنهما اثنان ، بقوته خلق الأول الآخر ، وبضعفه خلق الآخر الأول » .

العقـل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لقد فتح باب اللا نهاية عندما قال : « أفلا تعقلون ؟ ».



برقيـــة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

في إحدى ليالى الكهف التى لا تنسى غلبنـى السـكر بعد أرق وحيرة . وإذا بذرة هائمـة فـى أعمـاق الكـون تهمس فى وجدانى أن أطمئن .

لقاء فى الظلام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وأنا فى مطلع الشباب حلمت هذا الحلم :

رأيت الصحراء مترامية أمـامى ، فـأوغلت فيهـا ثمـلا بحريتى . ولما أدركنى المساء أردت أن أرجع ، ولكننـى ضللت سبيلى ، وضعت فـى الظلمـة كنسـمة هائمـة . واستحوذ على الخـوف واليـأس ، ونظـرت إلى السـماء فلم تقل لى النجوم شيئاً . وانتبهـت علـى تـردد أنفـاس تلفح وجهى ، فجفلت وتساءلت

ــ من هنا ؟

فأجاب صوت هادئ .

ــ اتبع شبحى ..

فتبعته مسلما أمرى للمقادير . وكلما مر الوقت دون وقوع ما يريب اطمأننت . ودس الشبح فى يدى قارورة ، وطلب منى أن أشرب ، فشربت شربة روية سرى تأثيرها من الرأس إلى القدمين . وسألت :

ــ أى شراب هذا ؟

فأجاب الشبح :

ــ خمر صنعتها فى بيتى .

وكدت أرتعب لولا أن طارت بى النشوة فوق الهواجس .

وهلت بشائر الشروق ونحن نسير . ولمحت وجهه على ضوء أول شعاع ، فإذا به وجه امرأة لم أشهد لحسنها مثيلا من قبل .

ورجوتها أن تقف لحظة . وركعت أمامها فى خشوع ، وأحطتها بذراعىّ .



شهيق زفير

قال الشيخ عبد ربه التائه :

مع شهيق الكون وزفيره تهيم جميع المسرات والآلام .

الحرية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أقرب ما يكون الإنسان إلى ربه وهو يمارس حريته بالحق .

السر

ولم يكن الشيخ عبد ربه التائه يخفى ولعه بالنساء . وفى ذلك قال :

الحب مفتاح أسرار الوجود .

حديث الموت

قال الشيخ عبد ربه التائه :

رأيت الموت فى هيئة شيخ فان وهو يقول معاتبا

« لو كففت عن عملى عاما واحدا لانتزعت منكم الإقرار بفضلى » .

التفاؤل

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ــ لماذا يغلب عليك التفاؤل ؟

فأجاب :

ــ لأننا مازلنا نعجب بالأقوال الجميلة ، حتى وإن لم نعمل بها .

ما تشاء

أثار الشيخ عبد ربه التائه عجب بعض المريدين بإغراقه فى الحياة الدنيا ، فقال لهم : « افعل ما تشاء بشرط ألا تنسى وظيفتك الأساسية وهى الخلافة » .

المهزلة والمأساة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

من خسر إيمانه خسر الحياة والموت .



السرعة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما نكاد نفرغ من إعداد المنزل حتى يترامى إلينا لحن الرحيل .

المستشار

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حبا فى الهداية قررت زيارة صاحبكم الذى ضجت الأرض من ظلمه وفساده ؟ طلبت مقابلته فاستقبلنى مستشاره وقدم لى القهوة . والتقت عيننا لحظة فعرفت فيه إبليس متنكرا . ولما أحس بأننى عرفته ضحك قائلا :

ـ خسرت هذه الجولة فالعب غيرها ..

الخصم القوى

قال الشيخ عبد ربه التائه :

يا من أيقظتن الفؤاد فى دار الفناء ، أشهد بأنكن خلقتن الخصم القوى الذى يتحدى الموت .

الاختيـار

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءتنى امرأة جميلة تسألنى الرأى فى مسألة تعنيهـا . ولما وافيتها بالجواب قرأت طالعها فى جبينهـا الوضـاء . وقلت لها :

« أمامك طريقان ، طريق العفـة والسـماء ، وطريـق الحب والإنجاب ..؟ »

فقالت بابتسام واحتشام :

« لقـد أعدنـى ذو الجـلال للحـب والإنجـاب ، ولـن أخالف له مشيئة .. »





بحـــر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وجدتنى فى بحر تتلاطم فيه أمواج الأفراح والأكدار .

شكـــر

قال عبد ربه التائه :

الحمد لله الذى أنقذنا وجوده من العبث فى الدنيا ومن الفناء فى الآخرة .

خفقـة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

خفقة واحدة من قلب عاشق جديرة بطرد مائة من رواسب الأحزان .

أنا الحـب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كنا فى الكهف نتناجى حين ارتفع صوت يقول :



« أنا الحب ، لولاى لجف الماء ، وفسد الهواء ، وتمطى الموت فى كل ركن » .

الاقتحـــام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حاولت يوما العزلة ، ولكن تنهدات البشر اقتحمـت خلوتى .

الحب والحبيبة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قد تغيب الحبيبة عن الوجود ، أما الحب فلا يغيب .

لا تلعـــن

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لا تلعنوا الدنيا فهى تكاد ألا يكون لها شـأن بمـا يقـع فيها .

واجب العزاء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءنى رجل شاكيا ، فسألته عما به فقال :

ـ إنى غريق فى بحر المتع ولا أشبع !

فقلت له :

ـ سأزورك يوم تشبع ، لأقدم لك واجب العزاء .

الدنيا والآخرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

إذا أحببت الدنيا بصدق ، أحبتك الآخرة بجدارة .

بلا ترحيب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الصديق الذى يندر أن نرحب به ، هو الموت .



السـر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كما تحب تكون .

الوسـط

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أناس شغلتهم الحياة ، وآخرون شغلهم الموت .

أما أنا فقد استقر موضعى فى الوسط .

الترنـح

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كتب على الإنسان أن يسير مترنحا بين اللذة والألم .

الجوهـران

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جوهران موكلان بالباب الذهبى يقولان للطارق :

تقدم فلا مفر ، هما الحب والموت .

الدورة اليومية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

استلقيت فوق الأرض الخضراء تحت ضوء القمر أهيم فى الرؤية ، فهمست الأرض فى أذنى شاكية :

« ينفسون على لقمتى اليومية . وما فعلت سوى أن استرددت ما سبق أن وهبت » .

سر وراء السر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قلت للحياة : حقا إنك سر من أسرار الوهاب .

فقالت بحياء : إن أبنائى يسألوننى ، فلا يجدون عندى إلا السؤال .

الوقت الأخير

قال الشيخ عبد ربه التائه : « كيف نتعامل مع وقت الرضا والسرور ؟ »

فأجاب : اعتبره آخر ما تبقى لك من وقت .



انظـــر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

إن مسك الشك فانظر فى مرآة نفسك مليا .

نسمة الحـــب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

« نسمة حب تهب ساعة تكفّـر عـن سيئات ريـاح العمر كله .

خطبة الفجر

قال الشيخ عبد ربه التائه لسمار الكهف :

أسكت أنـين الشـكوى مـن الدنيـا ، لا تبحـث عـن حكمـة وراء المحير مـن فعالها ، وفـر قـواك لما ينفـع ، وارض بما قسـم ، وإذا راودك خـاطر اكتئـاب فعالجـه بالحب والنغم .

الزمـــن

قال الشيخ عبد ربه التائه :

يحق للزمن أن يتصور أنه أقوى من أية قـوة مدمـرة ، ولكنه يحقق أهدافه دون أن يسمع له صوت .

الصراع الشامل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أشمـل صـراع فـى الوجـود هـو الصـراع بـين الحـب والموت .

الأصـــل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أطبق الشر على الإنسان من جميع النواحـى . فـأبدع الإنسان الخير فى جميع المسالك .



الخيــال

قال الشيخ عبد ربه التائه : « قد يـدرك المعمَّـر يومـا أنه أطول عمرا من أجمل رموز الحياة !

الطائر الأخضـر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أحببت حتـى الـذروة ، وحلّقـت بجنـاحى النجـاح ، وأطربنى الغناء فى الليالى البدريـة . وعنـد المغيـب هبـط الطائر الأخضر ، فغرد وأشجانى دون أن أفقه له معنى .

خفقة قلب

قال عبد ربه التائه :

ما بين كشف النقاب عن وجه العروس وإسداله على جثتها إلا لحظة مثل خفقة قلب .

الحركة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءنى قوم وقالوا إنهم قرروا التوقف حتى يعرفوا معنى الحياة ، فقلت لهم تحركوا دون إبطاء ، فالمعنى كامن فى الحركة .

لا تندم

قال الشيخ عبد ربه التائه :

اخفق يا قلبى واعشق كل جميل وابك بدمع غزير إذا شئت ولكن لا تندم .

حسن الختام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما أجمل أن تودعها وقد ازداد كل منكما بصاحبه رفعة .



عنــوان

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أقترح تعليق لوحة فوق مدخل الكهف يكتب فيهـا : « اللّه يديم دولة جسنك »

ما يملأ الفضاء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لولا همسات الأسرار الجميلة السـابحة فـى الفضـاء . لانقضت الشهب على الأرض بلا رحمة .

اللهفــة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كابدت من الشوق ما جعل حياتى لهفة مكنونــة فـى حنين .

الغباء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لا يوجد أغبى من المؤمن الغبى ، إلا الكافر الغبى .

الغناء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الغناء حوار القلوب العاشقة .

الآن

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الحاضر نور يخفق بين ظلمتين .

الدين

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الحياة دين ثقيل ، رحم الله من سدده .



الصفح

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أقوى الأقوياء من يصفحون .

تذكرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

عندما يلم الموت بالآخر ، يذكرنا بأننا مازلنا نمرح في نعمة الحياة .

الواحة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

فى الصحراء واحة هى أمل الضال .

الحديقة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما أجمل راحة البال فى حديقة الورد .

الفــرج

وفى ليلة الموسم جمعنا الكهف فلم يتخلف أحد .

فى الخارج عوت الرياح الباردة ، وزمجرت .

فى الداخل جاد كل صدر بحنينه حتى عمت نشوة شادية .

وقال الشيخ عبد ربه التائه :

ـ هنيئا لمن قام بواجبه فى السوق ، أو تحدى الكدر .

غضضنا الأبصار من الحياء ، وأصغينا إلى ناى الراعى القديم .

وقال الشيخ :

ـ أنظروا إلى باب الكهف ، ولا تحولوا عنه الأبصار .

وخفقت القلوب حتى ارتعشت جذورها فى انتظار الفرج ،

وفى لهفتنا ، رأته البصيرة وسمعته السريرة .

رقم الإيداع : ١٣٦٣١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى I.S.B.N977-01-9170-1



مهرجان القراءة للجميع



هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى ب
من ٨٠مليون نسخة كتاب من أمهات الكتب فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تف
عيون أطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر الس
العشره الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ البدا
المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه المعرفة على ا
والمال لأنها تحمل الإنسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات وس
كل وسائل الإتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى . فكانت مكتبة الأسرة بكل
أساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد، عصر المعرفة وإننا لنتطلع فى الأعوام القادمة
الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتفسح ا
يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لتكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضارة الم
التى كانت أهم وأقدم الحضارات الإنسانية عبر التاريخ.

سوزان مبارك



الثمن